

سلسلة
ثقافية
شهرية



كتاب الهلال

أحاديث جدتي

● الدكتورة سهير القلماوي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٣٠ - جمادى الثانى ١٣٩٨ - يونيه ١٩٧٨

No. 330 - Juin 1978

مركز الإدارة

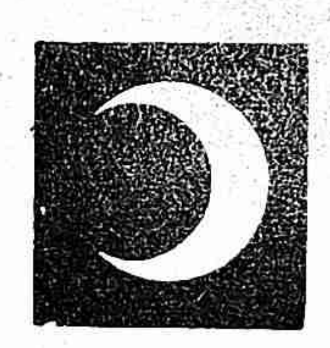
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا . فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٫٥ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب .

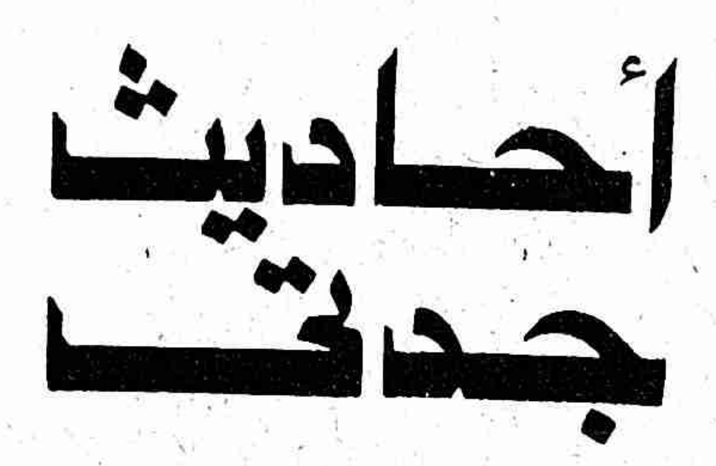
كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع


تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

الدكتورة سهير القلماوى



دار الهلال

الاهـــــــداء

الى التى لولاها لم أكن شـــــــيئا . . .

الى أمى . . .

تقـــديـــم

لا يحتمل هـذا الـكتاب الصغير مقـــدمات .. ومقدمة أستاذى ، التى أعتز بها ، قـــد اشـــتكى هو نفسه الخوف من أن تعتـــدى على حجم الـكتاب . ولـكنها كلمات قصار أريد أن أصدر بها هذه الطبعة .

ان لهـــذا الـكتاب من قلبى منزلة الابن الأول من قلب أمه . انه أول ما ألفت ، وكان عهـــدى بلقـــاء القراء عن طريق القلم ، أو المستمعين عن طريق المذياع ، لا يجاوز عاما وبعض عام ، ولقد ألفته فى ظروف نفسية عصيبـــة اثر أعنف صـــدمة فى حيـــاتى وهى موت أبى فى مطلع عام ١٩٣٥ ، ولعل فـكرة تأليف الـكتاب لم تعد أن تـكون الدواء الذى اقترح على لأتسلى به عما كنت أعانيه من يأس وألم . وكانت الحياة من حولى تعين على يأس وألم ولـكنى وجدت المهرب منهـــا فى ماض أتعلق به وأحبـــه ومســـتقبل أرجوه وأثق انه سيكون .

ولـكن الـكتاب الذى قبعت آلاف من نســـخه فى المخازن حينا كان قد عرف طريقه الى خارج مصر وهو بعد وليد . واستقبلنى أستاذى وليم مرسيه الأستـــاذ بالـكوليج دوفرانس يوم ســـافرت اليه طالبة فى البعثة على انى مؤلفة « أحاديث جدتى » التى كان يقرأها مع

طلابه فى جامعة الجزائر . وكانت هذه الحقيقة أول فرحتى بالكتاب . ثم أرسلت الى أمريكية ترجمة انجليزية فى أصولها لأراجعها . وراجعتها ولا أدرى مصير هذه الترجمة من الكتاب .

وفى العام الماضى طلب الى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن يقوم بترجمة الكتاب ضمن ما سيترجم من أدبنا الحديث لنشره فى الخارج . وبعد أسابيع وافتنى الطالبة « نجاح هاشم » برسالة باللغة الانجليزية قدمتها عن الكتاب لجامعة دمشق ، وفى الرسالة جزء كبير مترجم عن الكتاب .

وقد لقيت فى القاهرة الأستاذ هنرى ماسيه مدير مدرسة اللغات الشرقية فى باريس فحدثنى عن ترجمته للكتاب الى اللغة الفرنسية ، واليوم تطلب منى هذه المؤسسة التى تشرف على اصدار هذه الطبعة أن تنشر الكتاب على أكبر عدد ممكن من القراء .

وهكذا كبر الوليد ، وبعد ربع قرن تقريبا من ميلاده يلقى القراء يافعا قد اكتسب ، كما اكتسبت أمه من خبرة الابن الأول ، حقائق ومعلومات عن الحياة على هذه الأرض ـ حياة الأجساد وحياة العقول على السواء .

ولا يسعنى وأنا أقدم الكتاب فى طبعته تلك الا أن أزود ابنى الأكبر بالأمنية التى تزود بها الأم ابنها وهو مقبل على سفر فى مهمة ترجو له فيها النجاح . فليعنك الله يابنى على أن تنجح فى أن تثير فكرة ، أو تنعش عاطفة ، فتخفف على قارئك شيئا من عناء السير المضنى فى الطريق الطويل الشاق ـ طريق الحياة .

سهير القلماوى

مقدمة

للدكتور طه حسين

ان صدق ظني فسيكون لهذا الكتاب الذي أقدمه الى القراء شأن أي شأن . فقد قرأته مرتين وما أشك في اني سأقرؤه مرة ومرة ، وما أظن اني سأنصرف عنه وقد ارضيت حاجتي الى قراءته ، وانما ستصرفني عنه كتب اخرى لابد من أن تقرأ ، وواجبات لابد من أن تؤدى ، وهذه الظروف المختلفة التي تحول بينك وبين ما تريد .

ولو اني حاولت أن ابين الأسباب التي تحبب الى هذا الكتاب ولا تزهدني في قراءته مهما تتكرر ، لما وجدت ذلك سهلا ولا يسيرا . فقد ألتمس هذه الأسباب في هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث الينا الكتاب عنهم ، والذين يصورون لنا عصرا من عصورنا القومية نحبه أشد الحب ، ونجهل من أمره غير قليل ، أو نكاد نجهل من أمره كل شيء ، وهو هذا العصر الذي سبق الاحتلال الانجليزي واتصل حتى أدرك أوائله .

ففي هذا العصر كانت لمصر آمال واسعة وأماني عراض ، وكانت لها خطوات بعيدة موفقة الى تحقيق

الآمال وادراك الأمانى ، وكان فيها نشـاط تخفق له القلوب بالحياة ، وتمتلىء له النفوس ثقـة وعزما ، ثم بينا هى ماضيـة فى طريقها يدفعها اليقين ، وتبتسم لها الأيام ، وتثور من حولها المصاعب مختلفة معقدة ، فلا تثنى لها هما ، ولا تفل لها عزما ، اذا سـحابة مظلمة قاتمة تسعى اليها من وراء البحر فلا تحفل بها ولا تهتم لها ، بل لا تزيدها هذه السحابة الا قوة وأيدا ، والا نشاطا وجـدا ، والا ثقة بالنفس واطمئنانا الى حسن الحظ .

ولـكن السحابة تسعى متثاقلة متباطئة فى جـد مع ذلك وتصميم ، وقد قدمت بين يديها نذرا لم تسمع لها مصر ولم تصغ اليها ، وما تزال السحابة فى سعيها تسبقها ظلمات ، وتكتنفها ظلمات ، وتتبعها ظلمـات ، حتى تبلغ وادى النيل فتطبق عليه اطباقا ، واذا هى تحجب عنه الضوء ، وتصد عنه النسيم ، وتضطره الى حيـاة فيهـا البؤس كل البؤس ، وفيهـا الشقاء كل الشقاء ، وفيهـا العودة الى ذل كانت مصر قد برئت منه ، والى خمول كانت مصر قد حطت عن نفسها أثقاله ، والى يأس كانت مصر قد فرجته عن نفسها تفريجا ، واذا نفوس تزهق ، ودماء تراق ، وآمال تحطم ، وعزائم تفل ، وقلوب يملؤها القنوط ، ووجوه يغشيها العبوس ، وثغور كانت تبتسم فمحى عنها الابتسام محوا ، واذا حزن متصل ويأس مقيم ، واذا أمور مصر ليست اليها ، واذا هذه الأسباب التى كانت مصر تمدها موفقة الى مجد جديد تقطع تقطيعا ، واذا السـلاسـل والأغلال تفرض على هذا الشعب الذى كان قد حطم السلاسل والأغلال .

هـذا العصر يصوره لنا الأشخاص الذين يتحدث عنهم هـذا الـكتاب ، فأكثرهم كان يعمل فى الجيش المصرى ، فى هـذا الجيش الذى لم يكد يتكون وينشط ويعمل حتى أظهر الأعاجيب ، وأقنع الأمم المعاصرة بأن مصر خليقة أن يحسب لها حساب حين ترضى ، وأن يحسب لها حساب حين تغضب وأن يحسب لها حساب حين تريد .

وكان هؤلاء الأشخاص يستقبلون أعمالهم فى الجيش راضين مغتبطين واثقين ، وكان رضـاهم واغتبـاطهم وثقتهم تشـيع من حولهم شـعورا حلوا هادئا بالأمن والدعة وحسن الرجاء ، وكان ما يعرض لهم من الخطوب والأهوال يثير من حولهم أحيـانا هـذا الاضطراب النقى الـكريم الذى يملأ قلوب الأمهات والزوجات حين يعلمن ان أبناءهن وأزواجهن يتعرضون للخطوب والأهوال ، ولـكن فى سبيل عز الوطن وأقامة مجده الخالد ، هذا الاضطراب النقى الـكريم الذى يحمل الى القلوب الحزن والعزاء ، ويحمل اليها اليأس والرجاء ، ويحمل اليها الجزع على من تفقـد ، والأمل فى رفعة الوطن وفوزه بالمجد الطريف يضاف الى المجد التليد .

هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث عنهم الكتاب يحببونه الى ويرغبوننى فيه ، ويحملوننى على أن أقرأ أنبـاءهم مرة ومرة ، دون أن أشعر بالملل أو أن أحس الفتور .

وقد التمس هـذه الأسباب عنـد أشخاص آخرين يتحدث عنهم الـكتاب ، لم يكونوا يعملون فى الجيش ولا يتعرضون لأهوال الحرب . وانمـا كانوا يعيشـون فى المدينة هادئين مطمئنين ، وكانت لهم أخلاق وعادات قد

بعد عهدنا بها ، وان كان قريبا ، لشدة ما أثرت الحضارة الحديثة فى حياتنا ، وقطعت أو كادت تقطع ما بيننا وبين ماضينا القريب جدا من الأسباب والصلات . فنحن نجد لذة حين نقرأ أحاديث هؤلاء الناس ، وحين نرى من عاداتهم وأخلاقهم ما نرى ، وحين نحس ما كان بينهم من هذه المودة الصادقة الساذجة التى لا تفسدها المنافع ولا تغيرها الأهواء ، وحين نلمح هذه العقلية اليسيرة التى كانت تطمح طموحا قويا الى المثل الأعلى ، ولكن فى غير تكلف ولا تصنع ولا اعتداد بالنفس ، ولا غرور بما تأتى من الخير ولا امتنان بما تقدم من الجميل ، ولا كفر بما يسدى اليها من النعمة . ونحن نجد لذة حين نسمع هذه الأحاديث التى تصورهم لنا كما رأينا آباءنا وأمهاتنا أو قريبا مما رأينا آباءنا وأمهاتنا حين كنا أطفالا ، وحين كانت الحضارة الحديثة تنسل الى بيوتنا انسلالا ، وتنسل الى نفوسنا أيضا ، وتمد حولنا الحبائل والشباك الخفية الدقيقة ، تأخذنا بها فى المدرسة ، وتأخذنا بها فى البيت ، وتأخذنا بها فى الشارع حين نمشى ، وتأخذنا بها فى أنديتنا حين نلعب ، فنقدر ما بينهم وبيننا من هذه الآماد التى كانت قريبة فبعدت ، ومن هذه الصلات التى كانت متينة فوهنت وأصابها الضعف ، حتى أنا لنلقى من بقى منهم فنتحدث اليه فلا يكاد يفهم عنا ، ونسمع له فلا نكاد نفهم عنه . واذا نحن محتاجون الى أن نتكلف السذاجة والتبسط لنصل الى قلبه وعقله ، واذا هو محتاج الى أن يتكلف ما لايطيق من التعقيد ليبلغ قلوبنا وعقولنا ، واذا نحن الى قلوب الأجانب من الأوروبيين وعقولهم أدنى منا الى قلوب الشيوخ من

المصريين وعقولهم . واذا نحن نتحدث اليهم العربية ، ولكننا فى حاجة الى الترجمان ، على حين نتحدث الى الأجانب لغتهم الأجنبية أو لغتنا العربية فنفهم عنهم ويفهمون عنا فى غير جهد ولا عناء .

نعم وقد ألتمس هذه الأسباب فيما يصوره لنا هذا الكتاب من اقدام النفس المصرية على حياتنا الجديدة هذه فى شىء من الحذر والاحتياط ، وفى شىء من الشك والريبة . وفى كثير من التمنع والمقاومة ، فنقارن بين اندفاعنا الى هذه الحياة الجديدة فى غير اناة ولا روية ، وفى غير مهل ولا تفكير ، وبين اقبال آبائنا عليها متحفظين مستائين ، لايأخذون بحظهم منها الا بعد تبصر وتدبر ، والا بعد تنخل واختيار ، كأنهم كانوا يعلمون حق العلم ان الانتقال من طور الى طور والملاءمة بين حضارة وحضارة ، والتقريب بين حياة وحياة . كل ذلك ليس من الأشياء التى تستطيع أن تتم دون أن يسيطر عليها العقل ، وينظمها حسن التدبير والتفكير ، وان شخصية الأفراد والجماعات أعز على الأفراد والجماعات وألصق بنفوسهم وأثبت فيها من أن تفنيها الرغبة فى التجديد ، وانما هى شىء يستطيع أن يرقى دون أن يفنى ، وأن يتطور ويتجدد دون أن يموت أو يبتذل ابتذالا .

نعم وقد ألتمس هذه الأسباب التى تحبب الى الكتاب فى هذه السذاجة الحلوة ، التى تبدأ مع الجملة الأولى من جمل الكتاب ، ولا تزال تترقرق فيه كما يترقرق الماء فى الأغصان الخضرة النضرة فتبعث فى النفس حياة قوية ، وحنينا ليس أقل منها قوة ، وتملأ العقل اقتناعا بأن حياتنا المصرية القريبة ليست من الجفاء والجفوة ،

وليست من الخشونة والغلظـــة ، وليست من الذواء والذبول بحيث يظن الشباب المتهالكون على كل جديد ، الذين تفتنهم مظاهر الحضارة الحديثة ، وتخلب عقولهم وألبابهم ، فاذا هم ينـــدفعون الى أمام لا ينظرون الى وراء ، واذا هم يمضون ولا يقفون من حين الى حين ، واذا هم يقتحمون بحرا لجيا ، وقد قطعوا ما كان يصل بينهم وبين الساحل من أسباب ، واذا هم لا يدرون متى يصلون ولا يعرفون كيف يرجعون .

وقد ألتمس هذه الأسباب التى تحبب الى الكتاب فى هــذه العبــارة السهلة اليسيرة التى برئت من كل تــكلف ، وارتفعت عن كل تصنع وتحدثت الى النفس المصرية والى القلب المصرى بلغة النفس المصرية والقلب المصرى ، لم تستعر ألفاظها ولا أساليبها من القــدماء الذين بعد بينهم وبيننـــا العهــــد ، ولم تتكلف محاكاة الأوربيين الذين لم يتم بيننا وبينهم الامتزاج ، وانما هى مصرية خالصة بل قاهرية خالصة ، لا تــكره أن تشــذ أحيانا بعض الشذوذ عما ألفته الفصـــاحة المدرســية والبلاغة التعليمية من التزام بعض الأوضاع والأشكال فى ادارة الجمل ، واقامة بناء الكلام بعضه على بعض . ذلك لأن الكتاب مشتق من حيـــــاة الأسرة المصرية القاهرية اشتقاقا ، فهو قطعة منها ، وهو يصــورها فى معانيه كما يصورها فى ألفاظه وكما يصورها فى أساليبه . فأنت لا تــكاد تأخـــذ فى قراءته حتى يخيل اليك انك لا تقرأ ، وانما أنت تسمع وترى ، وأنت تظن أول الأمر أنك تسمع هذه الفتاة ، وتراها تتلطف لجدتها وتدور حولها تلتمس منها القصة والحديث ، وانك ترى هــذه الجدة مستجيبة للفتاة فى حب وحنان ، متحدثة اليها

فى صدق وصراحة واخلاص ، ولكن الحديث لا يلبث أن يأخذك ، واذا أنت تنسى الجدة والفتاة ، وترى هؤلاء الأشخاص الذين يدور الحديث عليهم بين الجدة والفتاة يسعون ويعملون وتسمعهم يجدون ويهزلون . واذا أنت واحد منهم ، واذا أنت تشاركهم فى حياتهم وتشاطرهم آلامهم ولذاتهم . كل ذلك دون أن تبذل جهدا أوتتحمل مشقة أو تتكلف عناء ، لأن الكتاب قد أفرغ فى هذا اللفظ المصرى الحلو الذى نصطنعه حين يتحدث بعضنا الى بعض ، فلا نجد فى اصطناعه ولا فى فهمه اعياء ولا عسرا .

قف عند قصة عائشة هذه التى تلقاك متى بدأت قراءة الكتاب ، فسترى أول الأمر مطرا ينهمر ، ورعدا يخفق فى أجواز الجو ، وستسمع ريحا تعصف ، ورعدا يقصف ، وسترى فتاة معجبة بهذا كله تنظر اليه وتستمتع به ، وتكاد أن تتلقاه ، وجدة مشفقة عليها تحذرها وتدعوها وتغريها بالقصة والحديث . ثم استمع للجدة وقد أقبلت عليها الفتاة تحدثها حديثا فيه جمال الذكرى وحنينها وألمها ، فقد أثارت هذه العاصفة فى نفسها صورة عاصفة أخرى عصفت بالقاهرة منذ أعوام وأعوام ، ولكنها انتهت الى حزن يا له من حزن ، وأنت لا تكاد تمضى فى هذا الحديث حتى تنسى العاصفة التى يضطرب بها الجو الآن ، والتى اضطرب بها الجو منذ أعوام وأعوام ، لأن الحديث قد أثار لك شخصا غريبا فى أول الأمر ولكنه مؤثر محزن مثير للعطف مثير للرثاء بعد قليل ، هو شخص عائشة هذه التى كانت ساذجة يسيرة العقل ، حلوة النفس ، صادقة الحب ، تضحك صديقاتها بسذاجتها ، وتضحك هى من هذه

السذاجة ، تتعثر فى غير عقبة ، وتضطرب لما لا يدعو الى الاضطراب ، ثم يستبين لها الأمر فكأنما يرفع عنها الغطاء . واذا هى دهشة لتعثرها ، معجبة باضطرابها ، منكرة لهذا القصور الذى أضحك منها الصديقات وأضحكها من نفسها ، واذا هى مضحكة حين يستبين لها الأمر ، كما كانت مضحكة حين يختلط عليها الأمر .
وانظر الى هؤلاء الصديقات من حولها يداعبنها ويلاعبنها ويمكرن بها ويضحكن منها ويحببنها مع ذلك ، بل يحببنها لذلك حبا كله صدق واخلاص . وكل هؤلاء النساء من هذه الطبقة الوسطى التى لا ترقى بها الثروة الى أن تكون من الأرستقراطية الحاكمة ، ولا يهبط بها الفقر الى أن تكون من الرعية المحكومة ، وانما هى طبقة بين هذا وذاك ، تستمتع بسعة فى الحياة ولكنها سعة محدودة ، هى هذه الطبقة التى أخذت تظهر وترقى شيئا فشيئا منذ بدأ تاريخنا الحديث ، وأخذنا نكون الجيش وننظم الدواوين ، ونهيىء أبناء الشعب للعمل فى الجيش وفى الدواوين فتتغير أحوالهم قليلا قليلا ، يرقون الى الترك الحاكمين بعض الشىء ، ويهبط اليهم الترك بعض الشىء ، ثم يلتقون ، ثم يمتزجون ، ثم يفنى العنصر التركى فى العنصر المصرى قليلا قليلا ، ثم تتكون هذه الطبقة التى تختصر النشاط المصرى فى السياسة والادارة والحرب والقضاء والتعليم منذ انتصف القرن الماضى . هؤلاء الصديقات من هذه الطبقة هن مصريات قد تزوجن الأتراك أو هن أتراك قد تزوجن المصريين ، ففيهن تلقى النفس التركية والنفس المصرية ، وفيهن تتمثل العقلية الشرقية ، وقد أخذت تتفتح فى استحياء لما تحمله الينا الحضارة الغربية من ألوان التجديد .

أنظر اليهن وقد اجتمعن فى الضحى عنـــد الجدة ، وهن يتحدثن ويضحكن ويتندرن بعائشة ، ويتفكهن بما حفظن لها من الأحاديث ، وهن ينتظرنها ، وقد دبرت لها أختها كيدا ، فهن يتساءلن كيف تخلص من هـــذا الـكيد ، ثم انظر اليها ، وقد أقبلت حائرة ثائرة فهن يضحكن من حيرتها وثورتها ، ثم يستبين لها ما كان قد خفى عليها ، فاذا هى تشاركهن فى ضحك متصــــل ، ينقضى النهار دون أن ينقضى . ولــكن أسمعت الجدة ؟ أرأيتها ؟ انها قد رأت فيما يرى النائم شيئا أزعجها وملأ قلبها رعبا وخوفا ، وهى تصـــدق الأحلام وتشفق من تعبيرها ، وهى تقص حلمها على صديقاتها قبل مقدم عائشة ، لأن الحلم يتصل بعائشة وهى تلجأ الى الضحك وتنغمس فيه تدافع به طائف الليل ، هــــذا الذى ملأ قلبها اشفاقا وفرقا ولــكن الطائف يتراءى لها من حين الى حين فينغص عليها هذا الصفاء الذى كانت تود لو يخلص من كل شائبة ، وقد انقضى النهار وأقبل الليل ، ونشر على المدينة ظلمته وهدوءه ، ولم تكن فى المدينة سيارات ، ولم تكن أســـباب الانتقال فيها يسيرة ولا منظمة ، والصديقات مبتهجات بتقدم الليـــــل وانتشار ظلمته ، وتعسر الأوبة عليهن ، وهـــذه العاصفة تثور ، وهـــذه السحب المتراكمة قد أقبلت يســـبقها البرق ويحدوها الرعد ، وهى تصب ماءها على المدينة صبا ، فليس للصديقات بد من أن ينفقن ليلة سعيدة مجتمعات ، قد فرض المطر عليهن هذا الاجتماع ، سيبتن الليلة اذن عند صاحبتهن ، وسيسمرن ما وسعن السمر ، وها هن أولاء قد أوين الى مضـــاجعهن ينفقن فيها ما بقى من الليل ، ولــكن عائشة لا تريد أن تستقبل النوم دون أن

تؤدى صلاتها ، فقد كان النساء فى ذلك الوقت يصلين
ويحرصن على الصلاة ، ولكن ما بال عائشة مضطربة
لا تستقبل الصلاة الا انصرفت عنها لتستقبلها من جديد
ثم تنصرف عنها ، اسمع لها وهى تتحدث الى صديقتها
الجدة شاكية مشفقة أن الشيطان يقوم بينها وبين القبلة
كلما استقبلت الصلاة ليصرفها عنها ، مخوفا لها ساخرا
منها ، ملحا فى تخويفه وفى سخريته ، ان الأيام لتضمر
لعائشة شرا ، وان الجدة لتنتظر هذا الشر وتكاد تتبينه ،
ولكنها تكتم حلمها عن عائشة وتخفيه عليها ، فلتكتمه
ان شاءت ، ولتخفه ان أحبت ، فالأيام كفيلة بأن تعلن
الخفى وتظهر المكتوم ، وهى تبطىء فى ذلك أحيانا ،
أما الآن فهى مسرعة لا تحب الابطاء ، تسمع أن الباب
يطرق ، من عسى أن يكون الطارق ؟ فقد تقدم الليل
والعاصفة ثائرة ، والمطر ينهمر انهمارا . هو رسول
الأيام الذى أقبل ينبىء عائشة بأن ابنها قد مات فى بعض
الأقاليم . لقد تم تأويل الرؤيا ، ولقد تبين مكر الشيطان!
ولقد قطعت الأسباب بين عائشة وبين الضحك ، ووصلت
أسباب أخرى بينها وبين الحزن . فانظر اليها بعد ذلك
ساذجة فى حزنها كما كانت ساذجة فى ابتهاجها ، ولكنه
حزن لا يمر بك دون أن يملأ نفسك لوعة وأسى ، لأنه
حزن ساذج لا تكلف فيه ، انظر الى عائشة الحزينة .
وقد آوت الى مضجعها وأخذ النوم يدنو منها ، واذا
ابنها الفقيد يتراءى لها ، واذا هى تقرأ له الفاتحة ولا
تكاد تأخذ فى ذلك حتى تستبق اليها أشباح من الموتى
لا تكاد تحصى ، وكلها يطلب اليها أن تقرأ له الفاتحة ،
كما قرأتها لابنها ، وهى تهدىء الأشباح وتعدها ، ثم
تنفق ليلها فى قراءة الفاتحة للموتى !

أين تكون السذاجة المؤثرة المصورة للنفس المصرية فى آخر القرن الماضى اذا لم تكن فى هذا الحديث وفى الأحاديث الأخرى ، التى قصتها علينا « سهير » فى هذا الكتاب .

لقد كنت أريد أن ألم بهذه الأحاديث الأخرى ، فهى ليست أقل روعة ولا جمالا ولا تأثيرا من حديث عائشة ، ولكنى أخشى أن أطيل وأن تبلغ المقدمة قدر الكتاب ، وما أظن ان الناس يأخذون هذا الكتاب ليقرءونى أنا ، وانما هم يأخذونه ليقرءوا « سهير » فلسهير قراؤها والمعجبون بها على قرب عهدها بالتحدث الى الناس ، وأنا أحد هؤلاء القراء وأحد هؤلاء المعجبين . ومن يدرى؟ لعل اعجابى بسهير الكاتبة ، ورضاى عن سهير الطالبة من الأسباب التى تحبب الى هذا الكتاب . ولكن الذى لاشك فيه هو ان هذا الاعجاب وهذا الرضا هما اللذان يمنعانى من أن أثنى على « سهير » بأكثر مما ينبغى لها من ثناء الأستاذ الذى لم يتعود منه طلابه اسرافا فى الثناء .

طه حسين

— ١ —

عصفت الريح عاتية فى ليــلة من ليالى الشــتاء ، وأرعدت السحب وأبرقت ، ونزل المطر كأنما فتــحت ينابيع السماء . وانزوى كل فى ركن داره يتلمس الدفء من برد قارس ، والهدوء من اضطراب عصبى ، لايرى له مصدرا الا تفاعل الانسان مع الطبيعة حوله . وجلست جدتى قرب موقدها ، وقد أشــعلت لفافة تبغ تبغى الهدوء والدفء .

ولــكننى لم أستطع الهدوء فى مثل تلك الســاعة ، ففتحت الباب وخرجت الى الشرفة أنظر البرق وأرى المطر وأستنشق الهواء المغسول ، فأحس لكل هذا لذة غريبة . وصاحت بى جــدتى بعد برهة تنصح لى أن أدخل لأن البرد قارس لا يحتمل ، فلا داعى للتعرض له لمجرد مشاهدة البرق أو المطر أو لاستنشاق الهواء .

وجدتى تعلم ان ليس يغرينى بطاعتها مثل وعد بقصة جديدة أو بحديث عن ماضــيها ، فأسرعت ترغبنى فى الدخول ، قائلة انها ستقص على ما كان فى ليلة مثل هذه منذ أربعين عاما أو تزيد .

ــ كنا يا ابنتى نحن أهل الزمن الأول لا نعرف الكلفة ولا نتصنعها . فاذا أحببنا أحببنــا باخلاص وعاشرنا باخلاص ، لا نتكلف شيئا بيننا وبين من نحب ونعاشر .

لم نكن كأهل هذا الزمن نتكلف فى كل شىء . كنا لانعرف هذه المدنية الجديدة التى تضطر المرء الى أن يصانع ويدارى ، وأن يلاطف ويترضى ، وأن يتكلف ويتصنع..

وابتسمت ، وعرفت جدتى سر ابتسامتى ، فلطالما تناقشنا حول هذا الموضوع : هى تزعم ما قالت ، وأنا أدافع عن أهل هذا الزمن دفاع من يرتبط به . وكان أشد ما يدفعنى فى هذا النقاش أنى لست أحب تحسرا على ماض ولا تمنيا لرجعته . فلولا سلطان الزمن ، ولولا هذا السحر الذى يسبغه على الماضى ما تحسر ربع هؤلاء المتحسرين ولا تمنى أقل منهم رجعته .

وكانت جدتى مأخوذة بسحر هذا الماضى الذى أحبته يوم كان حاضرا ، وعاشت على ذكرياته بعد أن أصبح ماضيا ، فلم تعر ابتسامتى اكتراثا ، ومضت فى حديثها :

ـ وكانت أحب صديقاتى الى صديقتى عائشة ،كانت يا ابنتى سليمة النية ، طيبة القلب ، سمحة الطبع ، محببة العشرة ، كان قلبها أحسن ما فيها ، ان لم يكن هو كل ما كان فيها . أما عقلها فقد كان قاصرا بعض القصور ، يعوقها عن الفهم أحيانا ، وعن الحكم على الأمور غالبا ، وكنا ـ وخاصة أختها ـ نستغل فيها هذا الضعف لنضحك منها ، لا فى سخرية كما يفعل أهل اليوم ، وانما كنا نضحك لنضحكها معنا آخر الأمر ، لا نريد بذلك الا تمضية الوقت على أحسن ما نستطيع . فاذا ما مر الفصل الذى دبرناه لها ، وفرغنا من الضحك منه بعد أن أشركناها معنا كانت هى التى تذكرنا به لنضحك منه مرات أخرى ، وكانت هى التى تلوم نفسها وتقول : ما أشد غفلتى ، كيف لم أفهم !

ـ جاءتنى يوما زائرة ، ولـكنها لعذر لم تستطع ان تمكث عندى كما كنا نحب ، فوعدت أن تأتينى فى الغد. فلما كان الغد دخلت على أختها وهى لا تتمالك نفسها من شدة الضحك . قلت لها : ما بك وأين عائشة ؟.. وكان سؤالى عن عائشة فى لهفة شـديدة . ذلك انى يا ابنتى رأيت رؤيا فى تلك الليلة أفزعتنى. وأنت تعلمين بالتجربة ما لأحلامى من أثر فى حقيقة حياتى ، فلما لم تأت عائشة خفت عليها لأن ابنها مريض منـذ أيام فى الريف حيث يعمل . ورغم ضحك أختها لم أستطع طرد أفكارى السود ، لـكنها قطعت على أفـكارى بقولها :

« سبقتها اليك ، ولقـد دبرت لها فصـلا مضحكا للغاية ، هى لا تلبس الا البرقع الأسود كما تعلمين ، وأنا لا ألبس الا الأبيض، ولـكنى اليوم أردت أن نضحك منها ، فأخذت برقعها الأسود ولبسته أنا ، وتركت لها البرقع الأبيض . وأؤكد لك انها لن تعرف كيف تلبسه ، وستظل فى حيرتها هذه طويلا ، ولست أعرف على أى شكل ستحل مشكلتها ، ولـكنها ولا شك ستضحكنا من حلها » .

ـ ومكثنا ننتظر عائشة من الصباح الى قرب الظهر. وكنت لا أزال يا ابنتى أصـارع الأفكار فلا أقوى على صرعها . ولاحظت صـديقاتى كآبة كنت أخفيها حتى لا أعكر عليهن صفو اليوم ، فقلن لى : مالك ، وما بك ؟ قلت : ان رؤيا رأيتها مفزعة أليمة لم أستطع التخلص من سلطانها وسلطان جوها الى الآن . قلن : اللهم اجعله خيرا ، وما رؤياك ؟ قلت : رؤيا مضطربة لا أذكر منها الا قليلا ، فكأنى فى منزلى هذا ، ولكن فى غرفة غريبة

عنى كل الغرابة ، واذا بعائشة لابسة لباسا أبيض من رأسها الى قدميها ، وقد وضعت يدها على خدها ، ووجهها أصفر كالشمع ، وعيناها غائرتان من الألم ، واذا بأمى تلتفت الى وتقول : « مسكينة عائشة ، ضرسها وقع » ثم لم أر بعدها ولم أسمع شيئا .

ـ وجمت صديقاتى ، وكأن جو الرؤيا قد مسهن ، فكل حديث عن الرؤى له سحر عجيب يقف السامع أمامه واجما . ولكن وجومنا لم يطل ، اذ دخلت علينا عائشة ، وقد وضعت البرقع على فمها وأنفها وأمسكته بيدها طول الطريق ، وهى محتدة صاخبة قائلة لأختها :

« الله يجزيك ، أخذت برقعى وتركت لى هذا ، لم أعرف كيف ألبسه ، وأخذت أحاول ذلك بشتى الطرق، فتارة أشبكه ، وأخرى أعلقه ، وأخيرا لم أجد حلا الا اننى أمسكه هكذا طول الطريق ، وقد ضاقت أنفاسى وآلمتنى يدى » .

ـ وكان منظرها يبعث على الضحك ، فلم نستطع سماع كلامها الا بصعوبة من شدة الضحك . وزاد فى ضحكنا شعور خفى بأنا تخلصنا من جو مكروه هو جو الرؤيا التى كنت أقصها . ولكنى يا ابنتى ظللت طول يومى تحت تأثير رؤياى ، ولم يمح منظر عائشة ببرقعها الأبيض منظرها وهى فى لباسها الأبيض ، كما رأيتها فى المنام .

ـ وكانت يا ابنتى كلما ازدادت غيظا زدنا ضحكا ، وأخيرا أريناها كيف تلبسه ، فضحكت معنا ، وأمضينا اليوم فى ضحك ، نتصور منظرها وهى داخلة علينا فنضحك ملء افواهنا. وتذكرهى معنا منظرها وحيرتها

وما قاسته وكيف كان الأمر ابسط مما قدرت ، فتشاركنا ضحكنا بقلب طاهر ونفس نقية .

ــ وما وافى الغروب يا ابنتى حتى اكفهر الجو فجأة ، ثم أرعدت السماء وأمطرت . كان المطر ينزل من السماء وكأن بها سقاة يفرغون قربهم على الأرض . كانت ليلة ويا لها من ليلة ، كانت كهـــذه تماما ، لازلت أذكرها وأذكر حوادثها كأنها تمر الآن أمامى جزءا جزءا .

واغرورقت عينا جدتى من ألم الذكرى ، فتألمت معها وان لم أعرف سر المها . لقد كانت عواطفها تنتقل الى فى يسر عجيب ، كأن أعصابنا مجموعة أسلاك كهربائية واحدة تسيطر عليها احدانا ، لا فرق بين أن تــكون هى المسيطرة أو أنا . وظللت مأخوذة بحديثها وشعورها ، فلم أنطق حرفا وان كنت حاولت جهدى .

ولاحظت جدتى ألمى واضطرابى ومحاولتى ، فقربت رأسى من صدرها واسندته اليه بيدها فى حنان وعطف . ثم أمسكت ذقنى ورفعت رأسى حتى تلاقت عيوننا من خلل دمعى ودمعها . ثم قالت بصوت خافت حزين :

ــ يكفيك الله يا ابنتى شر ما لاقته عائشة منذ تلك الليلة الى آخر لياليها .

* * *

ــ كانت الليلة يا ابنتى كهذه حالكة أشد الحلوكة ، والطقس مكفهر ، والمطر غزير ، والرعد عال مخيف . وتعذر على صديقاتى ليلتها الرجوع الى منـــازلهن ، فقررن المبيت عندى ، وفرحنا كلنا لهذا القرار . لم تكن هذه أول ليلة بتنها عندى ، وانما كانت واحدة من كثيرات قبلها وكثيرات بعدها . كنا يا ابنتى ثلاث أسر أو أربعا

تتصادق نساؤها ويتصـادق رجالها صـداقة متينة مخلصة ، فكنا كلنا كأسرة واحـدة نعيش كأخـوات واخوة . ولم يكن المبيت عند احدى الصديقات الا شيئا عاديا ننتحل له أتفه الأعذار ، حتى يطول اجتماعنـا فيطول سمرنا وسرورنا .

ـ وأخذنا فى السمر والضحك الى سـاعة متأخرة من الليل . وكانت أخت عائشة كلما أحست سكوتا أو شبه سكوت ، التفتت الى أختها تغيظها بأشياء وأقوال لا نتمالك اثرها من الضحك ، لأنها لم تكن تستحق كل هذا الغيظ أو الجد الذى يستولى على عائشة منها . فمثلا تقول لها أختها :

« أتدرين يا عائشة يا أختى ان الذى خلقنى خلق الملك والوزير ، والذى خلقك خلق الكلب والخنزير ؟ »

فتحتد عائشة وتغتاظ وتصيح بها :

« حرام عليك . اسكتى يا كافرة ! استغفر الله .. استغفر الله .. انت يا بنت ! عقلك حصل فيه خلل! »

فكنا لا نمل الضحك من هذا الكلام مهما تكرر .

ـ وتقدم بنا الليل ، فقمنا كل منا تتلمس فراشها ، وقامت عائشة تصلى صلاة العشاء ، لأنها تعودت أن تصليها قبل نومها مباشرة . ولـكنها جاءتنى ، وكان فراشـها جنب فراشى ، وقالت لى فى لهجة خـوف ورهبة ، وقد اصفر وجهها :

«غريبة جدا يا أختى كلما بدأت الصلاة اليوم أرى الشيطان أمامى ، وقد لبس طرطورا أحمر ، وهو فاغر فاه ، يضحك ضحكة كأنه يستهزىء بى وبصـلاتى ،

وأحس لوقفته هذه سلطانا عجيبا على ، فأكرر وأكرر : اللهم اخز الشيطان ، اللهم اخز الشيطان ، فتتلاشى صورته ، لكن ما تلبث أن تعود ! وهكذا أظل أحاول الصلاة عبثا الى أن أمل فأتمها على عجل وفى خوف ، ولكنى الآن لا أستطيع الصلاة بحال » .

قلت لها : خيالات تتراءى لك لضعف أعصابك ، أليس لك الآن أكثر من أسبوع وأنت مشغولة البال ، مهمومة لمرض محمد ابنك ؟.. وكدت أقص عليها رؤياى لولا أن ارتفعت عيناى الى وجهها الأصفر من الخوف ، فأشفقت عليها وسكت . وكأنما كانت تطارد أشباحا تراءت لها ، فقالت لى :

« كلا ، ان محمدا اليوم أحسن حالا كما قال لى أبوه. ولكنى لست أدرى ما الذى يخيفنى عليه . كلما فكرت فيه أحسست انقباضا لا أعرف له سببا ، كأنما حجر ثقيل يضغط على قلبى ، فأكاد أئن من ألم الضغط ، وعبثا أحاول أن أطمئن نفسى بالواقع ، وعبثا أكرر كلمات والده ... ثم هذا الشيطان ماذا أفعل به ؟.. »

ــ وقالت جملتها الأخيرة بلهجتها الساذجة ، ونغمتها التى تصاحبها وقت الحيرة المضحكة ، وكدت أضحك لولا هذا الجو الذى كان يحيط بنا ، ولولا تلك الصفرة التى تعلو وجه عائشة ، والخوف الذى يتملكها .

ــ وأقنعتها أخيرا بأن تترك الصلاة الى الغد ، فكانت تحاورنى قائلة : ولكنى لم أؤجل فرضا باختيارى منذ بدأت الصلاة شابة الى اليوم .

ــ نامت عائشة أوتناومت ، ونمت جانبها أوتمددت، وظلت عيناى مفتوحتين متجهتين نحو عائشة فى فراشها

أمامى . كنت لا أتبينها جيدا رغم حدة بصرى فى الظلام ، وكنت أخاف أن آتى بأى حركة لأتبينها حتى لا تزعج ، فقد كانت المسكينة متوترة الأعصاب وجلة القلب مضطربة .

ــ كنت قد نسيت المطر والزوبعة يا ابنتى رغم شدتها وعتوها ، ولكن الآن وقد هدأت كل حركة عادت أعصابى الى شىء من طبيعتها ، فأنصت الى المطر ، وكان مازال يهمى ، والى الريح وكانت تعصف هائجة ثائرة . كنت أتخيل السحب فلا أرى من بينها الا عائشة بلباسها الأبيض ووجهها الشمعى ويدها على ضرسها . عائشة كما رأيتها فى الرؤيا . ومن بين أصوات الرياح والمطر والرعد رن صوت أمى ثانية حزينا هادئا متألما : « مسكينة عائشة ضرسها وقع » .

ــ وطرق باب الدار طارق ، فصحوت على صوته فزعة قلقة ، وفتحت النافذة أرقبه منها وأتسمع ما يقول ، قام اليه البواب ، واتخذت رسالته مجراها الطبيعى حتى تصل الى ، ولكنى كنت قد سمعتها من نفس الطارق ، ووقفت لها واجمة لا أستطيع حراكا . ترى ماذا وراءها ، والى أين ستنتهى بنا هذه الليلة الليلاء ! ؟

ــ ورن صوت عائشة بجانبى خائفا وجلا كالطفل أتى أمرا منكرا وهو يعترف بذنبه مستحييا نادما : « ماذا يا أختى ، ما الخبر ؟ »

ــ وحاولت ما استطعت أن أتكلم بصوت عادى ، ولهجة لا يستشف منها اضطراب أو خوف ، فقلت : « ان زوجك يريدك حالا » ولو كنت يا ابنتى قلت لها

ان عزرائيل جاء يطلب روحك لمـا اضـطربت أكثر مما اضطربت . قامت المسكينة ثائرة خائفة تـكرر وتكرر :
« قلبى قال لى ، يا سـاتر يارب ، قلبى شـاعر من الصبح ، يارب يارحيم » .

ــ وهرولت المسكينة ، وهرولت وراءها ، وماوصلنا دارها حتى صـدمنا الواقع صـدمة كادت تجن لها . لقـد مات محمد ، ولم يؤخر المقـدور خوف منه ، أو ترقب له . أخـذت المسكينة تشـد شـعرها ، وتلطم وجههـا وتصيح . ثم تعود الى شيء من الهـدوء ، الى شيء من الاستسلام اليائس الحزين ، وتـكرر بصـوت مسموع كأنما تحاول أن تقنع نفسـها فلا تقتنـع :
« قضاؤك اللهم ، وليس لقضائك مرد . انا لله وانا اليه راجعون » .

ــ تغيرت حال عائشة تغيرا تاما منـذ تلك الليلة . وأصبحت يا ابنتى كثيرة الحيرة ، كثيرة الوجوم ، لا من فصـول دبرناها لها ، وانما من فصـول دبرها لهـا القدر ، وكان أغلظ منا قلبـا وأقسى طبعا .

ــ كانت يا ابنتى كلما دخلت مأتما تعزى أهـله فى فقيـد تنصح لهن ألا يستسلمن للحزن وتقول لهن :

« لا . الحزن كفر . حـزنت على ابنى الوحيـد محمد ، وكان الشيطان لايدعنى مرة ، كلما صليت يأتى الى بطرطوره الأحمر وضحكته الساخرة ، ويقف أمامى على سجادة الصلاة ، ويظل يقول لى : « محمـد كان جميلا . محمد كان ابنك . كان حنونا . محمد لم يكن لك غيره . كان له مستقبل باسم . ولـكنه مات . مات . ربنا أخذه منك . محمد مات » حتى اترك الصـلاة ،

ولكم تراكم على من فروض لم أؤدها الى اليوم .

« اياكن والحزن . انى لم اعرف صلاة مطمئنة منذ مات محمد ، ولم أعرف نوما هادئا منذ روحته ، كلما حاولت النوم يأتينى محمد يطلب الى أن أقرأ الفاتحة على روحه ، فما أكاد أتمها حتى يهجم على جيش من أموات الأهل والمعارف كلهم يصيحون : « والنبى الفاتحة لى ، والنبى الفاتحة لى » فأقول لهن : « واحدا واحدا ، انتظروا قليلا » ولكنهم يتزاحمون ، فأقرأ لهذا ثم لذاك ، فلا أفرغ حتى الصباح .

اياكن والحزن فهو كفر ... »

ـ وهكذا كانت عائشة تستمر فى لهجتها الساذجة الحزينة تقص على أهل الميت ما تلاقيه من حزن ، وكانت السامعات يتوهمن أن بها مسا ، وان عقلها اختل ، فما تكاد تقوم حتى يتهامسن :

« مسكينة عائشة ، عقلها ضاع » .

ـ ولكن لسوء حظ عائشة عقلها لم يضع .

* * *

ودوى الرعد ، وهمى المطر ، وعصفت الريح ، فكررت جدتى :

ـ كانت يا ابنتى ليلة كهذه يوم مات محمد ، فاقرئى معى الفاتحة على روحه وعلى روح أمه عائشة .

وما كدنا نتم الفاتحة حتى تلاقت عيناى بعينى جدتى فاذا هما مغرورقتان والدمع يتساقط منهما فى هدوء وجلال ، واسندت جدتى رأسى الى صدرها ، وكررت ثانية :

ـ يكفيك الله يا ابنتى شر ما لاقته عائشة ...

— ٢ —

بين الطفولة والشيخوخة جاذبيـة غريبـة وتشـابه عجيب . كلاهما قريب من هـذا العالم المجهول الذى جئنا منه وسنعود اليه . وكلاهما قليل التقدير للحياة ، يـكاد لا يحفل بها هـذا عن جهـل بها ، وذاك عن علم وتجربة ، هـذا يبتسم للحيـاة ابتسام الطرب والأمل والفرح ، وذاك يبسم لها ابتسام السخر واليأس والألم .

وكثيرا ما نرى فى خلق الشيخ ما يقربه من الطفولة ، كأنما الحلقة قد تمت وعادت الى مبدئها من جديد ، وكثيرا ما يتصـادق الشـيخ والطفـل صـداقة حلوة طاهرة عميقة لاذة فيما تـكلف أصحابها من شـعور واحساس . فاذا كانت هذه الصداقة تقويها رابطة أوثق كرابطة النسب أو القرابة كانت أعمق وأدوم ..

كنت أفـكر فى هـذا وأناجالسـة الى مكتبى أقرأ درسى . وكانت جدتى شـغلى الشاغل منـذ عدت من المدرسـة . فقـد عدت لأجدها نائمة تشكو شيئا من الصـداع . تعودت أن أرى جدتى دائما بعد عودتى من المدرسـة لأقبلها قبلة كانت اشـتياقا لها أول عهدى بالمدرسـة وبفراق جدتى ، ثم أصبحت بعد أن صار لى صـاحبات آنس اليهن والى لعبهن عادة اعتـدتها لا أرى لها سببا ، ولـكنى ان تركتها يوما شـعرت لتركها بشىء ولو قليل من الضيق .

دق الجرس ، فأسرعت الى جدتى أسألها ما تريد ، فسألتنى وقد ظنتنى خادمها : هــل عادت البنت من المدرسة ؟ فأسرعت نحوها أقبلها كعادتى .

وأضــاءت جدتى النور لتعرف الوقت من ســاعتها السحرية المعلقة على الحائط . كم كنت أحب هــذه الساعة صغيرة ، وكم تقت الى لمسها والى اللعب بها ، فــكانت جدتى تنهانى . وهأنذا اليوم أديرها بيدى ، ولــكنى ما زلت أحس ان لها شيئا من السحر ، وما زلت أكن لها غير قليل من شعور يحسه الانسان نحو الأشياء التى يألفها طفلا فتذكره دوما بأيام الطــفولة المرحة العذبة الذكريات .

قالت جدتى ، وقد رأتنى أنظر الى الســاعة : ألا تنامين ، انها الثامنة ليلا ؟ قلت : نعم ، بعد أن تقصى على قصة أو حديثا عن ماضيك . قالت : اســتعدى لنومك ، وتعالى ريثما أتذكر لك حديثا يعجبك ، فقــد كبرت الآن وأصبحت أحاديثى لك طفــلة لا يلــذ لك الآن الا أقلها .

فى ظلمــة غرفة جدتى ـ وقــد جلست جانبها على السرير ـ أخذت جدتى تقول :

ـ كنا يا ابنتى من زمن بعيد فى رشيد . كان جدك رحمه الله قد نقل مع جزء من الجيش ليعمل هناك فى حصونها . وكان منزلنا هناك معروفا لمــكانة المرحوم زوجى . وكان أعيان رشيد ـ وقد أصبحوا أصدقاء جدك بعد أن أقمنا زمنا ـ يزورونه كثيرا ويزورهم ، ويجتمع بهم فى منزل أحدهم كلما استطاعوا أن يجتمعوا . كان بين هؤلاء رجل ثرى يملك منزلا فخما ، وحديقــة

واسعة مليئة بالفواكه والخضروات ، فى هذه الحديقة كثيرا ما ذهب أولادى ليلعبوا مع أبناء صاحب الدار .

ـ وكان ولدى اسماعيل أكثر أولادى حبا للعب . ولكنه كان ميالا الى الاتلاف فى لعبه ، ولكم نهيته ، ولكم حاولت معه باللين حينا ، والشدة كثيرا ، فلم أفلح معه فى كثير أو قليل ، وظل طول عمره أكثر أولادى كلفا باللعب وباغاظتى ، وظللت أعامله دون اخوته جميعا بالشدة والعنف .

ـ كنا يا ابنتى لا نعرف نظريات فى التربية ولا قواعد ، وانما كنا ننقاد فى تربية أبنائنا بفطرتنا ، وكانت العصا عندنا أكبر دواء لكل أدواء الطفولة الخلقية والنفسية ، فان ألهمتنا الفطرة طريقا غير العصا لنصل به الى ما نريد من الطفل العنيد المتلف المثير للغيظ ، كان ذلك من حسن حظ الطفل ومن حسن حظنا ، والا فان العصا أقرب ملجأ وأيسره وأسرعه فائدة .

ـ ذهب ابنى أسماعيل كعادته يلعب فى حديقة هذا الثرى ، ولكنه كان منذ أيام يحاور البستانى والبستانى يحاوره ليصل الى الكروم . كان العنب لايزال فجا حصرما ، ولكن للأطفال ولع خاص بالفاكهة الفجة لعله قلة اصطبار عليها حتى تنضج . وحاول البستانى أن يلهى اسماعيل بفاكهة أخرى وبوعود عن العنب يوم ينضج فلم يفلح معه ، كما كنت لا أفلح أنا معه . وأخيرا توعده مقسما أنه اذا صعد الى الكروم وقطع فرعا واحدا فسيشكوه الى .

ـ ولكن اسماعيل اذا أراد لعبا أو فسادا فلن يعوقه شىء مهما عظم ، وكانت عناقيد العنب الخضراء المتدلية

تزيده رغبة وتشعله عزما . فقافل البستانى وتسلق السور ، فاذا ما كان فوق الكروم كسر وقطع وأكل وأفسد ما شاء له الكسر والقطع والافساد . وما أن هم بالنزول حتى لمحه البستانى فتلقاه نازلا على كتفيه وحمله وسار به الى .

ـ وبين منزلنا ومنزل صديق جدك هذا مسافة غير قصيرة ، يمر فيها المار على المنزل الذى كان يجلس فيه جدك وأصدقاؤه . ومر البستانى حاملا اسماعيل. وكان اسماعيل منذ أن لمست رجلاه كتف البستانى يصيح ويولول ، ويتضرع ويستغيث بكل مار أن يحميه مما سيلاقيه منى . وما أن لمح أصدقاء جدك حتى صاح بهم :

« ياهوه ، حشونى . أمى حتموتنى من الضرب » !

ـ والتفت صاحب الدار فعرف بستانيه ، وعرف ابن صديقه فأدرك كل شيء . طالما شكا البستانى اليه من اتلاف اسماعيل الزرع ، وطالما حاول صاحب الدار أن يشكو اسماعيل لأبيه ، ولكنه كان يشفق عليه كل مرة . وها هو اسماعيل يسير الى عقابه وانه لعقاب حق استأهله من زمن بعيد .

ـ وبعد البستانى بحمله الثائر الصائح قليلا ، فبدأت الرأفة والشفقة تدبان فى قلب صاحب الدار من جديد. وما كاد يصل البستانى الى ويشكو اسماعيل ، وماكدت اهم لأحضر العصا أضربه بها ، حتى جاءنى خادم صاحب الدار يقول : ان سيده بالباب جاء بنفسه يستحلفنى الا امد الى اسماعيل يدا .

ـ لن تتصورى يا ابنتى مقدار غيظى ساعتها .

فهذا ابنى يتلف مال الغير ، بل مال الصديق ، بعد أن حاولت معه كثيرا لأصرفه عن عادة الاتلاف هذه . ثم ها هو ذا يسير فى الطريق العام صائحا انى سأميته من الضرب أمام المارين وأمام أصدقاء زوجى . ولكن هذا صديق زوجى يستحلفنى ألا أضربه ، فماذا يكون ردى عليه ؟ لن يكون الا القبول . فقبلت ، وانصرف السيد وخادمه ، وظللت أغلى من غيظى . أى عقاب أنزله بهذا الشيطان بعد أن أساء الى وألى صديق زوجى ؟

ــ وفكرت وفكرت ، وأخيرا اهتديت الى عقاب أعاقبه به دون أن أرجع فيما وعدت به الصديق .

ــ كان الوقت عصرا ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب . وكنا يا ابنتى فى هذا الزمن لا ننعم بكهرباء تريحنا وتوفر علينا كثيراً من المشاغل والمتاعب . كنا اذا غربت الشمس نعمد الى مصابيح تضاء بالبترول لنضيئها واحدا واحدا ، ثم نعلقها فى عمود أو على الحائط ليشع نورها على المكان كله . وكم كنا نقاسى من هذه المصابيح ! فهى سريعة التلف تحتاج الى عناية ونظافة حتى تقوم بما يراد منها . ولكن هذا هين يسير ، وانما الخوف كل الخوف من احتمال فرقعتها وما تجره الفرقعة من حريق ودمار .

ــ لست أطيل عليك الحديث حول هذه المصابيح ، فقد وقاك الله ووقانا شرها . ولنعد الى اسماعيل فانى الى اليوم بعد نحو أربعين عاما لا أذكر هذه الحادثة الا اهتجت لها من جديد اهتياجا لا أفهم له سببا ، قد يكون ألم الذكرى ، وقد يكون شيئا آخر لا أستطيع أن أحدده .

ـ أنرنا المصابيح كلها وكان هناك مصباح خاص نعلقه في عمود وسط صحن الدار لينير لنا الممرات والمنافع . وما كادت الخادم ترفع هذا المصباح الى مكانه من العمود حتى اتقدت الفكرة في رأسي اتقاد الشرارة المفاجئة . ونظرت الى اسماعيل وقلت له : « سترى عقابك يا لعين بعد العشاء » ، وأكل كل من بالدار واستعدوا للنوم ، فعمدت الى اسماعيل وعريته وعلقته في هذا العمود تحت المصباح الذي يتهافت على نوره الناموس .

ـ كنت أسمع بهذه العقوبة من خدمي وفي بعض القصص . ولكنني لم أكن رأيتها أو جربتها قبل هذا اليوم . وها هي الفكرة تأتيني وأنا في أشد الحاجة لها ، فلم ألجأ الا اليها .

ـ وصرخ اسماعيل ، والحق يا ابنتي اني لم أطق سماع صراخه . وكان جدك متغيبا عن منزله في مهمة من مهام الجيش ، فأغلقت أبواب الدار كلها ، ودخلت غرفتي أحاول النوم . كان صراخ اسماعيل عاليا متواصلا ، ثم سكت قليلا قليلا حتى لم يعد يصرخ الا صرخة خافتة قصيرة من آن لآن . عجبت لأمره وقلت لعله مل الصراخ فاستراح .

ـ جاهدت وجاهدت بين قلبي وعقلي ، هذا ينكر عملي ويهيج شفقتي ، وذاك يقول صبرا ان لم يكن العقاب شديدا عاد الى ذنبه ، وفي العودة عذاب لك وله. وأخيرا انتصر قلبي وخرجت من غرفتي عازمة على فك اسماعيل وغسله لينام . وكم كانت دهشتي وكم كان احتقاري لنفسي واشمئزازي منها !

ـ كان اسماعيل معلقا في العمود ، وعلى الأرض جلست

خادمه « صـــباح » وقد بلل الدمع جلبابها ووجهها ونحرها وهى لا تستطيع مسحه لأن يداها كانتا تهشان الناموس عن جسم اسماعيل . « منشة » فى كل يد تهش وتهش ، والدمع ينهمر ، وصوتها الخافت المتألم يردد كل حين :

« معليهشى ياســيدى ! الليــل قــرب ينتهى » ، واسماعيل لا يجيبها ألا بقوله :

« هشى يا صباح والنبى ، هشى هنا ... وهنا »

ـ هــذه الجارية ذات القلب الحساس لم تنم رغم حاجتها الى النوم ، وجازفت باحتمال قيامى ورؤيتها ، وما ستلاقى اذا ما وجدتها تتداخل فى أمر من أمورى . كل هذا من أجل صبى لاعبته صغيرا ، وعاشرته بضع سنوات ، وأنا أمه ألتى حملته جنينا ، وأرضعته طفلا، وربته صبيا ، ظللت أحاول النوم ولا أعبأ بصراخه . أية قسوة ! ما أحقر قلبى أمام قلب هذه الجارية !

ـ وقفت مبهوتة مغيـظة من نفسى أحتقرها ، وأنا لا أرفع عينى عن « صباح » المبللة بالدمع التى لم تقف يداها عن الهش كأنها آلة مسخرة ، وكانت دمعة تنهمر من عينى لولا أن لمحتنى « صباح » فصاحت بى :

« اطردينى ياستى ، لـكن والنبى فـكى سيــدى اسماعيل » .

ـ لم أستطع أن أقول كلمة واحدة . وانما ذهبت نحو اسماعيل ، فأنزلته وأخــذته الى الحمام أغسله . وما زال المسكين يبكى ، فقد كان جسمه كله ملتهبـا ساخنا وارما .

ـ منذ ذلك اليوم أكبرت « صباح » واحتلت منزلة جديدة فى قلبى . ما رأيتها بعدها يوما الا رأيتها كما كانت فى تلك الليلة تهش الناموس عن ولدى ، وتواسيه ودمعها يجرى من شدة الألم له .

وصمتت جدتى كأنما الذكرى تعاودها . فقلت : « ولكن أين « صباح » الآن ياجدتى ؟ » قالت :

ـ ما كنت لأخرجها من دارى يا ابنتى ، ولو قدموا لى أحسن جوارى العالم ، وأقدرهن على خدمتى . ولكن شاءت لها الظروف أن يكون خروجها من عندى أهون ما ينزل بها ، فقبلته مضطرة . ولقد جازاها الله على وفائها لى ، ولولدى اسماعيل خير جزاء .

ـ سرقت من جدك أشياء بعد هذه الحادثة بأعوام فاتهموها . وكانت الظروف قاسية عليها ، فاعتقد كل من بالدار انها هى السارقة . ولم أجد بين كل هذه الظروف ظرفا واحدا يبرىء « صباح » أو يبعد عنها التهمة ولو قليلا . قلبى كان كل دليلى على انها لم تكن هى السارقة . ولكن احساس القلب ان لم يستند الى شىء عقلى أو مادى لم يعره أهل الدنيا اهتماما . فباعها جدك لأنها سارقة ، فخرجت ودمعها على خدها . ولسانها يردد : « الله يعلم براءتى وهو كفيل بالانتقام » .

ـ مات جدك بعدها بأعوام ، فبحثت عن « صباح » اغفر لها ذنبها ، وأعيدها الى من جديد . ولكن القدر كان قد سبقنى فاستغفرها أو غفر لها . أصبحت « صباح » سيدة وزوجا لرجل ثرى كانت قد ماتت زوجه وله منها أولاد . فلما آنس فى « صباح » حنوا

وعطفا على أولاده تزوجها وأغدق عليها من ماله وعطفه ما تستحق .

❊ ❊ ❊

كان النوم قد غلبنى أخيرا بعد أن جاهـــدت طويلا لأسمع تمام حديث جدتى ، فقمت الى فراشى ، وقد بدأت « صباح » وقصتها تسيطران على أحلامى .

— ٣ —

« كم يستطيع هـذا الجيش ، لكنه مكبل مغلول لا يقوى على شيء ، كالأسد المحبوس فى قفص الحديد ، لايستطيع الا الزئير » . هكذا قال لى أستاذى ياجدتى، وقد مر بنا الجيش المصرى يوما ، فرأيته ينظر للجند متألما يغالب دمعه . منذ ذلك اليوم لا يمر بى فريق من الجند أو أسمع موسيقاهم حتى يغالبنى دمعى وتثور نفسى . وأود لو يتاح لى سبيل الانتقام ممن أوصلوا جيشنا الى ما هو عليه .

هذا سبب اضطرابى ، فما بكاؤك أنت ياجدتى كلما مر الجيش بك أو سمعت موسيقاه ؟

قالت جدتى : يذكرك الجيش المصرى يا ابنتى بما يستطيع لو لم يضغط عليه الأجنبى بسلطانه ، ولكنه يذكرنى بكثير من هذا وبأكثر منه . يذكرنى بجهاد أبنائى فى سبيل الوطن ، وبهذا القلق والألم اللذين كنت أقاسيهما أياما بلياليها ، لا أعرف معنى للهدوء أو راحة البال . ثم هو يذكرنى أولا ، وقبل كل شيء ، بدم ابنى رأفت المهدر غدرا . يذكرنى برأفت الشهيد الذى لا أعرف له قبرا أبلله بدمعى فأجد فى هذا بعض الشفاء .

كنت سمعت حديث رأفت مرارا من قبل ، ولكنى أشتاق اليه دائما . وهممت أن أطلب من جدتى أن تعيده على مرة أخرى ، ولكنى خوف اثارة شجونها

وجمت ، فاذا هى تندفع فيه ، وكأنما كانت تحس فى اعادته شيئا من التنفيس عن جرح لم تبرئه السنين وان خففت من حر أله .

ومسحت جدتى دمعة كانت ما زالت تريد السقوط من عينيها وقالت :

ـ كنا يا ابنتى فى منزلنا هذا وهو قريب كما ترين من ثكنات الجيش الانجليزى ، ولم تكن العباسية كما هى الآن مليئة بالبيوت والعمارات ، وانما كانت بيوتها قليلة منثورة هنا وهناك ، بين البيت والبيت مسافة بعيدة ، كان بيتنا هذا ، والبيت الذى يجاورنا يكادان يكونان الوحيدين فى كل تلك المنطقة ، فلا ترى العين على مدى البصر سواهما شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا .

ـ وكان جو الوطن اذ ذاك كله غيوم كثيفة قلقة مضطربة ، فتوفيق باشا معتصم بسرايه فى رأس التين ، وعرابى باشا من ورائه الجيش ، وقد تجسمت آمال المصريين ومطالبهم فى شخصه ، والأجانب والانجليز خاصة يرون الفرصة قد سنحت لتدخلهم فى شئون البلاد وأخذ ما يمكن أخذه منها . وكان لى اذ ذاك ثلاثة أبناء فى الجيش : اثنان فى حرس توفيق باشا وواحد فى جيش عرابى باشا .

ـ ولم يكن الجيش يا ابنتى كهذه الأيام يدخلون فيه كل من يئسوا منه فى العلم أو العمل ، لقد أخذوا الآن يرتقون فى اختيارهم وأصبحوا يشترطون فى داخلى الجيش حيازتهم الشهادات ، ولكن أيام أبنائى كانوا يأخذونهم من مدارسهم العالية بعد أن يكونوا قد درسوا بها سنتين أو ثلاثا .

وظلت جدتى تتكلم عن أبنائها ، وكم سنة درس كل واحد منهم فى دراسته العالية ، وأى فرع كان قد تخصص فيه ، ولكنى كنت أفكر بعيدا عن قولها . كنت أفكر فى هذه الظاهرة ، ظاهرة شروط القبول فى الجيش ، وأخيرا وصلت .. سياسة الاستعمار ! ما أهولها ! وما أدنا السبل التى يصل بها المستعمر الى ما يريد من المستعمرة ! كانوا يدخلون مدرسة الحربية أو البوليس كل ميئوس منه ، لأنهم لم يكونوا قد شكلوا أهل البلد كما يريدون بعد . كانوا يأخذون شر من فى هذا المجتمع الذى لم يدب فيه الفساد بعد. فلما أيقنوا من فساد المجتمع ، وأدخلوا نظام المدارس تحت سلطانهم وجعلوها قوالب يصبون فيها المصريين كما يريدون ، واستيقنوا ان المدارس أصبحت تخرج لهم نوعا من الشباب كالذى كانوا يقبلونه ، اشترطوا الشهادات وشروطا أخرى ليضيقوا العدد ، فلم يدعوا باب مدرسة الحربية مفتوحا لكل من يريد ، لئلا يتوفر العدد ، ولئلا يدخل فيها من قد يصبح زعيما حربيا يوما ما ، ومن قد ينفخ فى وطنه الروح الحربية من جديد . وما عملوا الا لاماتتها ، لأنهم لايخشون غيرها .

مسكينة يا مصر ، أصبحت أكبر شهادة تقدم للدخول فى جيشك أن يتظاهر المتقدم ، أو أن يصرح بأنه لايهمه أمرك ، وانه لا يفكر فى خدمتك . مسكينة يا مصر ، أصبح من أبنائك من تسمح له روحه ويرضى عنه ضميره اذا قال هذا القول متمسحا بأسباب مهما جلت فهى أمام حبك واهية ، وأمام ما يجب لك حقيرة دنيئة . متى .. متى يقوم منك الزعيم ؟ (١) .

---

(١) هذا الكتاب الف سنة ١٩٣٥ .

وانقطعت سلسلة أفكارى على قول جدتى :

ـ كنت أبيت الليل ساهرة ودمعى لا يجف حتى الصباح . ترى لو اشتبك الجيشان ، لو احترب الاخوة ! لو قتل الأخ أخاه ! لو قتلوا جميعا ، او فقدت ثلاثتهم ، وهم كل ذخرى ، بل هم كل حياتى ! أبنائى أين أنتم ؟ وفيم أنتم ؟..

ـ هكذا يا ابنتى كانت الهواجس تلهب رأسى ، ولم يكن لدينا كالآن جرائد نعرف منها الأخبار ، لم يكن لدينا أى شىء نستطيع الوصول به الى معرفة ما قد تم فى الاسكندرية . أربعة أشهر يا ابنتى قضيتها فى الجحيم ، أربعة أشهر كفرت .. وكفر المصريون كلهم عن سيئاتهم أى تكفير .

ـ كانت الأخبار تأتينا ، لكن متناثرة مفككة ، بعد وقوع الحوادث بأيام .. بل بأسابيع . قالوا ان الانجليز ضربوا قلاع الاسكندرية بأساطيلهم ، فارتج قلبى على أبنائى . كانوا فى الاسكندرية ، وكانوا فى حرس توفيق باشا ، ولكن من يدرى ؟.. قد يكونون أصيبوا هم أيضا . وأخيرا جاءنى خبر انهم لم يصابوا فى ضرب الاسكندرية .

ـ ولم ينته الحرج يا ابنتى بضرب الاسكندرية ، وانما كان يسير مطردا نحو شدته . ثار المصريون ثورتهم واندفعوا وراء زعيمهم عرابى باشا يريدون وضع حد فاصل بينهم وبين تدخل الأجنبى .

ـ واتهم عرابى باتهامات شتى ، ورأى عرابى ان الخديو قد خدعه الانجليز ، وانه أمن اليهم أكثر مما يجب . فلم يكن عرابى والمصريون معه ليفهموا حسن

نية الانجليز بعد ضربهم قلاع الاسكندرية وتدميرها . فأشهر عرابى الحرب على الانجليز ، وحاربهم وحاربوه. وأعلن الخديو انه غير مسئول عن أعمال عرابى ، واصبح عرابى زعيم الأمة ، والجيش من ورائه . وحارب عرابى فانهزم ، وأخذ يتقهقر الى أن وصل الى التل الكبير . وتحصن فى التل الكبير واستعد لموقعة هائلة ، موقعة فاصلة علق المصريون عليها آمالهم وكل مستقبلهم .

ــ كان ولدى رأفت فى جيش عرابى ، وكم كنت أود لو أن ولدى الآخرين كانا فى نفس الجيش ، كم وددت لو انى قدمت نفسى فى هذه الموقعة مع أبنائى . لم أدخل الحرب ، ولكنى قاسيت بعيدة عنها ما كنت أرضى بالحرب بدلا منه . ان أهوال القتال مهما اشتدت لا تعادل آلامى وتهديد آمالى وحر انتظارى فى هذه الأيام . ولأعترف لك يا ابنتى بما اقترفت فى حق وطنى اذ ذاك . شعرت ساعتها انى لو خيرت بين موت أولادى الثلاثة ، وبين انتصار عرابى فى التل الكبير لاحترت وتمهلت الأفكر . ولم أخفى عليك ؟.. لقد سألت نفسى هذا السؤال ، ولقد سمحت لى نفسى أن أتردد وأن أميل أخيرا الى تفضيل حياة أبنائى . كم كفرت عن هذه الساعة وعن هذا الخاطر . كم لمت نفسى بعدها وقلت لها : انتظرى جزاءك على خاطر مر بك لم يكن صريحا خالصا فى جانب الوطن وفى سبيله .

ــ أيام مرت على كالسنين المليئة هولا وألما وخوفا والتياعا . أيام بين خبر زحف عرابى باشا الى التل الكبير ، وبين خبر انهزام عرابى باشا فى التل الكبير .

ـ انهزم زعيم البلد ومحط آماله ، وانهزم الجيش معقد الرجاء وسبيل النجاة الوحيد ، وختم من جاءونا بالخبر قولهم بأن غدا يدخل الجيش الانجليزى القاهرة ليعسكر فى ثكنات العباسية .

ـ لن أستطيع أن أصف لك هول وقع هذا الخبر ، لقد أصبح أهل القاهرة كلهم وقد تملكهم الخوف ، ودب اليأس فى قلوبهم ، يتلهفون على الهرب بأى سبيل حتى لا يعرضوا أنفسهم لما سينزله بهم الجيش المحتل . أصبحت هذه تذهب عند تلك ، لأن بيتها يبعد عن الثكنات كذا من الأمتار ، كأنما فى مثل هذا البعد شيء من الأمان . وفكرت كما فكروا فى الهرب والاختفاء . ان بيتنا قريب جدا من الثكنات ، وفى هذا القرب خطر علينا عظيم . وكانت لى صديقة تسكن حى بولاق ، فقلت أسير اليها ، لعل فى البعد نوعا من الأمان . فاستأجرت عربة لم أجد غيرها فى مثل هذا اليوم ورتبت حوائجى ، وأركبت أطفالى الصغار ، ولكن خاطرا أفسد على كل هذا الترتيب . قلت فى نفسى : ان دخل الجيش العاصمة ، فالعاصمة كلها فى خطر ، فما معنى الهروب من حى الى حى ، ان الله ان أراد بنا الشر لحقنا أنى سرنا ، فلم الفرار من المقدور ؟.. ولم التجىء الى صديقة ، ولا ألتجىء الى الله الذى سيسمع دعائى دون شك ، وليفعل بعدها ما يريد .

ـ وأنزلت أولادى ودخلت دارى من جديد ، وعمدت الى المنافذ كلها فأغلقتها ، والى الأنوار فأطفأتها ، ووقفت أرقب الطريق من وراء النافذة . وصغارى يسألوننى بين حين وآخر : ماذا جرى ؟ .. وأين اخوتنا

الكبار ؟.. ومايبكيك يا أماه ؟ ! ..

ـ طالما شهدونى باكية فى هذه الأيام ، ففوق اضطراب الخوف من الحرب كنت أخاف أن تطول الحال بنا فينفد ما لدى من مال . كانت القاهرة كلها يا ابنتى ـ وهى عاصمة البلاد ـ مهددة بشبح الفقر ، وخاصة الأسر التى كان يعولها من بالجيش . فما بالك بأسر الريف الفقيرة المسكينة ، وكنت أخاف على قلوب صغارى البريئة من الألم فأخفى دمعى وأقول لهم : بعد قليل تعرفون ، هيا الى ألعابكم العبوا بها . ويشهدون، ويشهد الله ان لعبة واحدة جديدة لم يروها منذ شهور ، بل منذ عام . وكأنما قد ملوا السؤال ورأوا فى طاعتى ما قد يجلب لى بعض السكون. فراحوا بعيدا عنى ولم أعرف ماذا عملوا الا ان أكبرهم كان يجىء من حين لحين يهدئنى ويقول : صبرا يا أماه .. ألم يحضر اخوتى بعد ؟.. ألم يأت خبر من عندهم ؟.. فأقول له : دعنى هنا يابنى واذهب أنت لأخوتك تلهيهم باللعب أو الكلام حتى يأتينا الفرج .

ـ وعن بعد سمعت صوت الجند قادما ، فكأنما صوتهم نار دخلت أذنى لتحرقهما بحرها الكاوى . وشيئا فشيئا اقتربت أصواتهم حتى ظهروا وهم يسيرون ضاحكين مهللين يصفرون وينشدون أناشيد النصر والمجد . وتساقط دمعى غزيرا حارا ، فقد كانت صورة كل واحد منهم شوكة فى عينى ، أحس ألمها فى رأسى المصدع الذى يكاد يسقط من ثقله . وأسندت راسى بين يدى وتركت دمعى يسقط ما شاء له السقوط ، وأنا أغلى من غيظى وحنقى . هذا الأجنبى يدخل وطنى غاصبا مستعمرا ، لا لشىء الا لأنه أقوى

جندا وعددا . ومن يدرى ؟.. لعلهم انتصروا فى الحرب بخديعة لا عن قوة وصبر .

ــ وما كاد خيالى يوصلنى الى الحرب حتى ذكرت أبنائى، وكان منظرالجيش وشدة الفيظ قد أنسيانيهم . من يدرى ؟.. لعل هؤلاء قتلة أبنائى أيضا ! وهنا لم اطق النظر اليهم . وما أن لفت رأسى كيلا أراهم حتى لمحت ضابطا منهم يتجه نحو دارنا ويقرع البـــاب قرعا شـــــــديدا .

ــ ولم يكن خادم بالمنزل كله ، لأنهم طلبوا الى فى هذا الحرج أن يعودوا الى اهليــــــهم حتى تنجلى الحال ، فتركتهم لأهلهم فهم أولى بهم واحق بما قد يستطيعون فى هذا الحرج . نعم يا ابنتى فى تلك الظروف تلين القلوب ويعطف بعضها على بعض . لم ارغم خدمى الذين تطوعوا لخدمتى ازاء اجر ينالونه ، لم افــكر فى انهم ينفعوننى فى مثل هــذا اليوم ، رايتهم يومها قلوبا محرقة مثلى لا يخفف عنهــا الا الاهل والأقارب ، رأيت أهلهم وهم يبكونهم فتركتهم ، بل حثثتهم على الاسراع اليهم . ولم يبق لى من خدمى الا عبدى وجوارى ، فلم تكن لهؤلاء المساكين اهل أو اقارب ، الا انا واولادى . وكان مسلك هؤلاء ومنظرهم مما يبعث على الضحك ، اولا ان الوقت حرج مخيف . فما سمعوا أخبــار الحرب والانهزام ، حتى صــعدوا الى أعلى غرفة على ســـــــطح المنزل واعتصموا بها أياما ، يولولون ويبكون ويصرخون . ولقد تركتهم يفعلون ما يريدون ، فهذه طريقة تفريجهم عن كربهم ، وان كنت لم أعرف بالضبط سر بكائهم وعويلهم لــكن بعــد عودة أولادى عرفت انهم كانوا يندبون اولادى ويبكونهم ، وهم يعرفون انى لا أطيق هذا النوع

من البكاء ، فراحوا فى معتصمهم يبكون ما شـاءوا ، يا لقلوبهم الطـاهرة المخلصة ! .. قلوبهم التى تراعى مزاجى فى أشد أوقاتهم حرجا وحزنا وخوفا ! ..

ـ ولنـعد الى الطـارق الـذى لم أكن حسبت له حسابا ، من ينزل له ؟ .. خدمى ليسوا فى المنزل ، ولو كانوا لمـا عرضتهم لهـذا الخطر ، وعبـدى وجوارى معتصمون بحصنهم العالى ، ولن يطـاوعنى قلبى على انزالهم . وأهلى يتلخصون فى هؤلاء الأطفال الصغار . جئت مصر غريبـة عنهـا وما مكثت بها قليلا ، حتى تزوجت . ومات والدى الذى جئت معه بعـد زواجى بقليـل ، فلم أعرف بعده أقارب الا زوجى وأولادى ، واستأثر الموت بجدك فلم يبق لى الا أولادى وصـغار أولادى ، لأن كبارهم كانوا فى الحرب .

ـ وجاءنى أكبـر من كان معى من أولادى يقول : « أمى ، سأنزل لأرى ما يريد هذا الانجليزى ؟ » قلت : كلا ، أنا التى ستنزل اليه .. قال : « كيف يا أماه ؟ انه رجل وهو غريب ، وهو عدو سكر بنشوة النصر ، كيف تقابلينه ؟.. وما أنا فى المنزل ؟.. طفلة ترضع !» قلت : لدى كلمة واحـدة . أنا التى ستنزل اليه . قال : « أمى ، انه انجليزى لا يعرف العربية ، فـكيف تتفاهمان ؟ » . فوجمت أمام صدق ملاحظته ، ولـكن لن أدعه ينزل وحده .. قلت : انزل يابنى ، انى فى اثرك . وعدوت الى المطبخ فأخذت سكينا حادة أخفيتها تحت ثيابى ، ونزلت السلم وراءه حتى جئنا الى الباب ففتحته ووقفت خلفه .

ـ ورأيت من الانجليزى رجلا فى غاية الأدب ، يكلم

ولدى بما لم أفهم ، ولـكنى لمحت فيـــه ذوقا وأدبا واحتراما جعلنى انتظر . ولم أكد أنتظر حتى صـــاح ولدى مهللا فرحا يقول : « امى !.. ان أخوى اللذين فى الحرب بخير وعافية ، وقد طلبا من هذا الانجليزى أن يمر بك ليطمئنك عليهما » .

ــ نسى ولدى من شــدة فرحـه انى كنت مختبئة . ونسيت أنا ما هو أخطر من هــذا من شــدة فرحى : نسيت انى ازاء واحــد من الجيش المغتصـــب ، انى ازاء انجليزى كان منظره منــذ دقائق يشــوك عينى ، ويصــدع رأسى ، ويبكينى غيظـا وحنقـا ، نسيت انى أمام عدو غلب أمتى ، فقلت لولــدى : قل للضـــيف يدخل ليستريح قليلا ريثما يشرب فنجانا من القهوة .

ــ رفض الضـابط عرضى لارتبــاطه بمواعيـــــد فرقتـه ، وما كاد البـاب يقفل حتى صحت : ولدى ، ولدى ! هذه سكينى ، اقتـله ! اقتـله ! انه انجليزى ! انه هازم أمتك ، انه هازم أخيـك رأفت ! انه . . . وكدت أقول قاتل رأفت لولا أنى أحسست انى سأقول كذبة هائلة .

ــ وهـــدأنى ولدى وكفكف دمعى وقال : أمى ! ان رأفت لم يمت ، أنا أحس هــذا ، هو قادم الينا عما قريب . أمى لا تبكى ، اخوتى فى أمان .

ــ فى غرفتى المظلمــة ظللت أبـكى وأبـكى . ولو كان هــذا الضــابط جاءنى ينعى ولدى ما بـكيت أكثر مما بكيت . كنت أبكى وطنى يا ابنتى وانهزام ابنى رأفت . كنت أبـكى أرض مصر التى أصبحت يطؤها الأجنبى ظافرا مزهوا فخورا بالنصر . مصر وطنى الذى لم أولد

به ولكنى لم أعرف لى وطنا سواه . مصر التى قضيت بها أسعد أيامى ، مصر التى سال دم زوجى وفاضت روحه من أجلها والتى سال دم أبنائى ، ومن يدرى ؟ لعل رأفت قتل فى سبيلها !

ـ ودق الباب فنزلت مسرعة ، فاذا بى أسمع شهقة وبكاء ، كان ابنى سبقنى الى الباب ، وكان الطارق ابنى رأفت ، والأخوان يتعانقان عناق الهزيمة والخيبة ، ويبكيان لا من فرح اللقاء بعد انقطاع الرجاء ، وانما يبكيان من ألم الهزيمة وذل الانكسار .

ـ وعدا رأفت الى والدمع يبلل صدره ، وعانقنى وقبلنى . وأخيرا استطاع أن ينطق : « أماه ! لاتبكى، ان اخوتى لم يصبهم أذى ، وهأنذا سليم أمامك » .

ـ ولكنه كان يخادع نفسه فى طمأنتى على أولادى. كان يحس تماما انا كلنا نسينا كل شىء فى تلك اللحظة الا مصر المهزومة . فما أتم كلامه حتى رمى رأسه على صدرى وأخذ يبكى ويبكى . قلت : بنى ، ان ذل الانكسار أليم ، وان ألم الهزيمة لا يعادله ألم فى نفس الجندى ، ولكن صبرا ان الله لا يضيع أجركم . ان الله الذى يرعانا جميعا لن يرضى عن هذا الظلم ، وسينتصر الحق عما قريب . صبرا بنى ولاتبك.

وتساقطت دموع جدتى حارة ساخنة كأنما رأفت ما زال على صدرها . ثم قالت شاهقة من البكاء : والى الآن يا ابنتى لم يرفع الظلم عن مصر ، وانما ازداد بأس الظالم وعتوه .

كنت أعرف ان الحديث عن مصر يؤلم جدتى ، تلك العجوز التى عاشت عمرها وهى تفذى مصر بأبنائها

وزوجها وبقلبها . لم يعمل واحد من أبنائها الا فى الجيش المصرى ، ولم يمت زوجها الا فى خدمة الجيش المصرى ، بل فى ميدان الحرب من أجل مصر وفى سبيلها . لقد علقت هذه العجوز ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ان كان لايزال لها مستقبل ، بمصر وبآمال مصر . وكذلك أبناؤها — كلهم لم يعرفوا ميدانا للعمل الا جيش مصر . أحاديثها مع زوجها وأحاديثها مع أبنائها كلها كانت تدور حول مصر ، وها هى اليوم أحب ما تحدثنى به اليها والى حديثها عن مصر .

وأردت أن أغير موضوع الكلام ، فقلت ساهية : « ولكن ابنك رأفت مات فى حرب » ، وكأنما زدت النار حطبا وأنا لا أدرى ، فقد اندفعت جدتى ثائرة ، وقد تقلص وجهها المجعد الجميل ، وجحظت عيناها الباهتتان الفائرتان الدامعتان . ومن فمها الدقيق الذى ظهرت عليه معالم الكبر والوهن ، خرجت كلماتها حارة قوية حزينة ساخطة :

— لقد غدر به اللئام ، لقد قتلوه وقتلوا عشرة آلاف جندى مصرى غدرا وخيانة وظلما . ولو كانوا يا ابنتى قدموهم الى المقصلة واحدا واحدا لكان أشرف لهم ، فهم أقوياء ، وهم يريدون فناء الجيش فليفنوه علنا . وليشجعوا شجاعة تمكنهم من احتمال اشمئزاز العالم من الظلم والجور . اما أن يتستروا وراء الحيل والخديعة ليفوزوا بمآربهم الدنيئة وباحترام العالم فى وقت واحد ، فهذا شر ما أعرف من حالات الجبن . ان الطاغية الذى يقتل ويشرد ويعذب ويسجن ليفوز باحترامى ، وان باء ببغضى واشمئزازى ، لأنه يظلم ويواجه العالم ظالما ، لأنه يظلم ويعرف لنفسه قدرها ،

فينزهها عن الخيانة والغش والخداع .

ـ ما دخل الانجليز مصر حتى عرفوا ان أخطر ما فيهـا جيشـهـا . ولقـد بلوا هـذا الجيش فى حربهم فألفوه شجاعا صبورا هزيمته تـكلف كثيرا ، وقـد يعجزون عما تـكلف . وما دخـل الانجليز مصر حتى عرفوا ان جيشـهـا على قلته ليس جيشـا يستهان به . فقالوا ان هـذه الشوكة يجب فى سبيل أخذ البـلاد أن نقلعها ونستريح من خطرها . وهكذا دبروا ما يسميه التاريخ « موقعة هكس » ، وما أسميه أنا « خديعة هكس » .

ـ بعد ثلاث سنين من دخولهم مصر جاءتهم الفرصة سانحة مواتية . قامت ثورة المهدى فى السـودان واستفحل أمرها ، فحشدوا عشرة آلاف جندى مصرى وأرسلوا معهم القائد « هكس » الانجليزى ولم يشك أحد من المصريين اذ ذاك فى ان الانجليز لايريدون بهذا الجيش الا أن تخمد ثورة المهدى فى السودان . فسار الجيش وآمال المصريين معلقه به ، هذه لها ابنها ، وتلك والدها أو زوجها أو أخوها ، أما أنا فـكان لى فيـه ولدى رأفت .

ـ ودعت يومها ولدى رأفت وأنا أحس انى لن أراه بعدها ، ولـكنى غالطت نفسى وقلت : هذا كان شعورى يوم ودعته ليسير مع عرابى باشـا ، وها هو قد عاد سالمـا ، فكفكفت دمعى وقلت : سر يا ولـدى والله سيرعاك ويردك سالما لأمك .

ـ سار الجيش وراء قائده سليمان نيازى باشـا ، ورئيس أركان حربه هكس باشـا ، وتحمل الجيش ما

تحمل من مشاق الطريق ، وألم الجوع ، والصبر على العطش . وما قاربوا « الأبيض » بعد انتصارهم على وكيل المهدى قربها حتى طمعوا فى فتحها ، وأرسلوا الى الحكومة لتأذن لهم فأذنت . وهنا بدأ هكس مكيدة الانجليز . قال : انه لن يسير الى « الأبيض » الا اذا كانت القيادة له ، والا فهو غير مسئول عن النتائج . وأسلمت القيادة له وأرسلوا معه حكمدار الخرطوم علاء الدين باشا ، وسار هكس بالجيش المصرى لفتح « الأبيض » فى طريق وعر صعب المسالك ، لا ماء فيه ولا مأوى . وأشار عليه علاء الدين باشا بألا يتبع هذا الطريق ، وأبان له وعورة مسالكه وقلة مياهه وخطورته ، فأبى القائد الا تنفيذ خطته ، وسار الجيش جائعا عطشا ، مهددا كل آن بخروج الدراويش عليه من الأحراش . وجاعت الجياد وعطشت وسقطت اعياء ، وأصبح أمر الجيش مؤلما فظيعا أشد الفظاعة ، أصبح جسما بدأ الموت يدب فيه من الجوع والاعياء والعطش . كل هذا وهكس مصمم على السير فى الطريق الذى أختاره . وما أن شارفوا ماء حتى اندفعوا نحوه فى لهفة وسرعة ، ومدوا أعناقهم من شدة العطش الى حافة الماء يشربونه بأقرب طريق وأسرعه . وهنا خرج عليهم الدراويش من أتباع المهدى وذبحوهم ذبحا وأفنوهم فناء . ولم يبق من الجيش كله الا قلة لا تتجاوز بضع مئات ممن استطاعوا الاختفاء بين الأشجار أو بين جثث القتلى .

ـ خديعة والله يا ابنتى دبروها وأحكموا تدبيرها . وهل يعقل أن يراد بجيش الثورة العرابية بعد ثورتهم بقليل الا الشر والدمار ؟ .. لقد خسرت انجلترا قائدا

واحـدا قبـل أن يضحى حيـاته فى سبيل اضـعاف الجيش المصرى أو الانتقام منه . أما مصر فقد خسرت مقابل هـذا القـائد الواحـد حاكما وسـتة قواد ، وعشرة آلاف جندى بضباطهم ! جازاهم الله يا ابنتى . ان عز الدنيا لا يدوم ، وسلطانهم مهما قوى فله ساعة . لهم يوم يدك فيه جبروتهم ، وتذل فيه نفوسهم السكرى بنشوة النصر .

— وما جاءنى خبـر تلك المجزرة حتى جزعت على رأفت كل الجزع . ولست أدرى كيف ان قلبى الذى لم يكذبنى قط لم يشأ أن يصـدق موت رأفت . كان قلبى يحدثنى دائما انه حى لم يذبح مع من ذبح . قالوا ان قلة قليلة نجت ولم نكن نعرف كيف نجت ، فقلت : ان رأفت فيمن نجوا ، ان رأفت لم يمت . ويعلم الله انى بعد معرفة كيفية نجاتهم لم أتمن حياته وفضلت موته .

— ولم أكن أعرف يا ابنتى المشايخ ولا السـحر ، ولـكن صديقاتى كن يعرفن هذه الأمور ويعتقدن فيها اعتقـادا راسخا . فلما رأين لوعتى وحيرتى وآلام الشك الضعيف الأمل جدا ، قلن لى : اسـتشيرى الشيخ فلانا ، انه صادق لم يكذب قط . وذهبت مع احداهن عنـد الشيخ وأعلمتـه طلبى . وبعد مراسيم سخيفة لم أشعر بسخافتها الا بعدها بكثير ، بعد أن أفقت من الـكابوس المزعج الأليم قال لى : « ان رأفت ولدك حى لم يمت . وانه يهيم وحده وسط هذه الأدغال ، وانه واصل اليك وان تأخر » .

— زاد اعتقادى بعدها ان رأفت حى . ولـكم نهرنى

ولدى الكبير قائلا لى : « أماه ! ان رأفت مات ، فاحزنى عليه حزن الثكالى ، لكن أريحى نفسك من آلام هذا الشك وهذه الآمال التى تعرفين فى قرارة نفسك انها خائبة . ما ذهابك الى المشايخ وأنت تعرفين دجلهم وخداعهم ؟.. أريحى نفسك يا أماه واطلبى من ربك صبرا وعزاء ، فهذا خير لك » .

ـ كنت أقول دائما : كلا .. رأفت لم يمت ، قلبى يحدثنى بهذا وان كان حديثه خافتا كما لم أعهده من قبل . وكنت اثر كلام ولدى أحس بضعف الأمل ، فأسرع طورا لهذا الشيخ ، وطورا لذاك ، فيؤكدون لى جميعهم انهم يرون رأفت حيا بين الأدغال .. يسير نحوى .

ـ ان حزن الأم على ولدها لا يعادله حزن مهما جل وعظم ، لكن هذا الحزن درجات ، وللزمان أثر فيه . وأى شىء يا ابنتى لا يخضع لجبروت الزمان ؟.. ان شر ساعات هذا الحزن ساعاته الأولى . فليس أشق على الثكلى من احتمال الساعات التى تلى نعى ولدها مباشرة . ولقد قاسيت هذا الألم الممض مرارا فى رأفت ، مر على الشهر الأول وفى كل يوم يردد عقلى نعى رأفت لقلبى ، فيأبى القلب أن يصدق ، ثم يعود فيصدق ، فاذا ما بدأ أثر الزمن والعزاء ينفذان الى هذا القلب الجريح ثار القلب ثورته على القدر وعلى الدنيا وصاح بى : رأفت لم يمت ، ان القدر لن يقسو عليك أكثر مما قسا .

ـ مضى الشهر يا ابنتى وكل ساعة من ساعاته تسير كأنما قد حملت حديد العالم كله ، فهى وئيدة بطيئة

ثقيلة طويلة ، وبدأ الزمن فعله ، فكنت أنسى رأفت ساعة لأذكره أياما ، كنت اقنع بموته لأثور ثانية وأعتقد انه حى . وهكذا مرت على السنون يا ابنتى وأنا فى حيرة وألم ، لا أدرى كيف أحتملهما .

وبعد أعوام عاد من السودان بعد فتحه من كان قد شهد الواقعة ، فاستدللت على أحدهم وذهبت اليه بنفسى دون علم أولادى وسألته : أتعرف ابنى رأفت ، الضابط فى فرقة كذا ؟.. قال : « نعم » . قلت : أين هو ؟.. قال : « قتل ياسيدتى ، أو ذبح على الأصح فيمن ذبح » . قلت وقد بدأت أبكى دون وعى : لكنه حى ؟ .. قال فى شفقة وحسرة : « ولكنى رأيته مقتولا بعينى » . فشهقت وقلت : هو حى ، هو حى. وأخذت أبكى وأبكى . فخفف على الرجل بعض ما أجد وقال : « سيدتى : عزاء جميلا وكفاك فخرا انك قدمت ولدك على مذبح الوطن » . قلت : جزاك الله خيرا يابنى .

ـ منذ أن فاه الرجل بعبارته هذه ملىء قلبى فخرا وأمنا لم أحسهما منذ شككت فى موت رأفت . نعم قدمت من أجلك يا مصر شابا فى العشرين من عمره ، لم يملك الا حياته فقدمها على مذبحك غير طامع فى شكر أو فخر أو ذكرى . فى قلبى هنا كل ما بقى من ذكرك يا رأفت . وبموتى القريب يا ابنتى تطوى ذكراه ، وكأن لم يكن . حياة الجندى ما أقسى وما أكثر ما تكلف وأشقه لكن ما أنبلها وما أعظمها !

سكتت جدتي وسمعتها تتمتم : كلا يا قلب ، ان

رأفت مات ، فلا تشق الجرح شقا جديدا بعد أن بدا يندمل .

كان قلب جدتى ما زال يقول لها : «رأفت حى» .

ودقت موسيقى الجيش مرة أخرى بمرور فـــرقة ثانية ، فأعادت جدتى كلماتها بنغمة حزينة فيهـــــا

استسلام يائس مرير : « ويذكرنى الجيش أولا ، وقبل كل شىء ، بدم ابنى رأفت المهدر غدرا . يذكرنى برأفت الشهيد الذى لا أعرف له قبرا أبلله بدمعى فأجـــد فى هذا بعض الشفاء » .

— ٤ —

وقالت جدتى :

— كنا يا ابنتى أسعد منكم حالا مهما حاولت اقناعى بعكس هذا : كنا لا نشغل أنفسنا بما تشغلون به أنفسكم الآن . كان يوم الرجل يقضى ما بين عمله وبيته . لم تكن هناك مقاهى يضيع فيها الشباب أحسن أوقاتهم وأكثرها ملاءمة للعمل . لم يكن المار فى الشوارع يرى هؤلاء الجالسين على قارعة الطريق ، لا عمل لهم الا شرب القهوة وألدخان ، أو ما هو أكثر منهما ضررا ، والا الكلام الذى لا يدور حول الخير ، بل أكثر ما يدور حول الشر . كان الصحب يجتمعون فى الدور .

قلت : وفى الدور يفعلون ما يشاءون .

قالت جدتى : ان للدور مهما قلت حرمتها ، انالرجل مهما يفسد لن يستطيع فى بيت له حرمته ما يستطيعه فى دار لهو أو قهوة ليس لها أى حرمة خلقية . لا يابنتى ، لا تحاولى أن ترضينى عن هذا الزمن ! .. سلى الرجال أنفسهم : ألم يكونوا أسعد حالا يوم كانوا يعملون ولا شاغل لهم الا العمل يتبارون فيه ويتنافسون فى اتقانه . سليهم عن حالهم ، يوم كانت وظائف الحكومة أكبر ميدان وأفسحه لخدمة الوطن ،

ثم سليهم عن حالهم بعد أن أصبحت دور الحكومة ووظائفها أضيق الميادين لخدمة الوطن خدمة صادقة مخلصة . سليهم أحالهم اليوم ، وقد أصبحوا مشغولين بالعلاوات والترقيات ، بالانتقامات والخصومات ، بالمندوب الجديد ، والمندوب القديم ، بالوزير المستقيل والوزير الآتى ، بالنظام الجديد ، والنظام القديم ، سليهم أحالهم تلك وذبذبتهم وعدم قرار نفوسهم وتهديد مصالحهم ومعاشهم كل حين .. أم حالهم يوم كانوا كلهم أخوة ، وكلهم يداً واحدة ، وكلهم كلمة واحدة ، يسعون لغاية واحدة هى أنبل ما عرف التاريخ من غايات .

قلت : دعيك ياجدتى من رجال اليوم ، ولنا فى شباب الغد عزاء . ألا ترين كيف بدءوا ينفرون من سياسة الشيوخ ؟

قالت جدتى : لا شيوخ ولا شباب . انظرى الى هذا الشاب الذى تعقدين عليه الرجاء . انظرى اليه كم عدده وكيف حماسته اذا ما التف حول راقصة أو مغنية . ثم ابحثى عنه فى اجتماع سياسى ، أو فى مشروع اجتماعى . لا يا ابنتى ، أن الحال لا تبشر بخير الا أن تحدث المعجزة ، ومصر بلد السحر والمعجزات ، فلننتظر المعجزة ، فقد لا يطول الانتظار .

قلت : جدتى ! ما أكثر تشاؤمك ، وكم أكره حديث التشاؤم . انى واثقة من أن شباب اليوم سيحققون ما عجز عنه شيوخ الأمس . وليكن هذا بمعجزة أو بغير معجزة . سننال ما نسعى اليه ، لأنه حقنا ، ولأنا نؤمن بحقنا ايمانا نسترخص فى سبيله كل تضحية وكل ثمن . صبرا جدتى ، اننا نسعى ، وكل سعى يغذوه الايمان لابد أن ينجح .

قالت : ما أجمل تفاؤلك يا ابنتى ، ويعلم الله كم أحبه لك ، تفاءلى فلن يكون سمى الا لمتفائل ، واسعى فلن يكون نصر الا لساع . سيروا فى طريقكم فسيخفق قلبى فى قبرى فرحا لنصركم ، وسترضى روحى فى عليائها ، يوم ترى مصر حرة آمنة عظيمة مجيدة .

قلت : كنتم ياجدتى أسعد حالا ، لأن سعيكم لم يكن محفوفا بالصعاب التى تحف سعينا . ولكننا نرى فى هذه الصعاب ، وفى تلك التضحيات ، لذة جديدة. ان هذه الحوادث التى تسخطك ما هى الا دروس تلقى ، دروس قاسية تتكرر ، وفى قسوتها وتكرارها حكم غاليات .

قالت جدتى : عسى أن تجد الحكمة سبيلا الى من يفهمها . لكن دعيك من الشباب وتعالى الى الشابات أتريهن أسعد حالا من اخواتهن شابات الجيل الماضى والجيل الذى سبقه ؟ ..

قلت : بلا شك .

قالت : كل شىء الا هذا . أهذه التى تتبرج وتكشف عن أعظم جزء ممكن من جسمها وتسير فى الطريق العام لفتا للأنظار ، فلا تظفر بالطبع الا باعجاب شر من فى هذا الطريق وأحطهم خلقا . أتلك سعيدة الحال ، أم فتاة الأمس التى كانت تظل محجبة فى دارها كريمة مكرمة ، يتهافت الشبان على طلبها ، فيختار لها الوالد ذو الخبرة والدراية أصلح هؤلاء لها ، فتعيش حياتها معه يعرف لها كرامتها ويحترم مكانتها ؟ أزوجة اليوم التى تظن فى نفسها ما ليس فيها ، فتتكبر على زوجها حينا ، فاذا ما

خاصمها سعت اليه لتترضاه ، أم زوجة الأمس التى كانت تعــرف مكانتهــا تماما فلا تتكبر حينـا لتـذل نفسها أحيانا ؟ ..

قلت: كلا جدتى لم تـكن نساء الجيل المـاضى كما تصفين ، وانما وصفك هذا وصف قلة فلا تحكمى به على المجموع . كلا جدتى لا تنظرى الى ظواهر نســاء اليوم فتحكمى عليهن بها . ولئن أسخطك تهتك الفتيات واهدارهن كرامتهن ، فان هــذا لايسخطنى فحسب ، وانما يفجرنى غيظا . ان هذه التى ترينها تعنى بجمالها ، وتتهادى فى مشيتها وتحاول لفت الأنظـار ، ان الفتــاة التى تهدر كرامتها اهـدارا ، ان هـذه ليست فتــاة اليوم ، ولـكنها الضحية . هى الدرس يلقى لتتعلم الفتيات الأخريات. هى الهشيم يحرق لتزداد نارالتطهير وقودا واشتعالا . هى المـادة تكثر ويسهل منالها حتى تبتذل فيعف عنهـا النــاس . فتــاة اليوم هى التى تعرف لنفسها كرامة ومنزلة ، وتعرف تماما انها ان هى حفظتهما حفظهما لها الناس صاغرين ، وان داسوهما فلا تلومن الا نفسها التى ارتضت دوسهما أو مهدت له.

فتــاة اليوم تعرف عن الحياة ما لم تعرفه فتــاة الأمس ، لذلك كانت آراؤهما تختلف ، ونظراتهمــا تختلف ، وأعمالهما تختلف . السعادة التى كانت تقنع بها فتاة الأمس تراها فتاة اليوم الحقة سعادة زائفة لا تستحق تقديرا ، بله الرضا . ولـكننى لا أحدثك عن فتــاة اليوم التى تستحق الاحترام والاعجاب ، لأنى ما جئت اليك محدثة ، وانما جئت سامعة ، هذا فوق ما أشعر به من تعب خفيف .

قالت : كل هذا يا ابنتى من كثرة ما تقرئين وتفكرين. طاوعينى واسمعى منى واتركى هـذه الـكتب ، وانظرى اى تغيير تحسينه فى صحتك . وهذا داء جديد لم نكن نعرفه ، مرض القراءة كفانا الله شره . رحم الله زماننا يوم كنت لا أترك لبناتى وقتا يقرأن فيه أبدا .. كنت أقول ان الفراغ يجلب أفكار السـوء . وكانت القراءة عندى فراغا. رحم الله يا ابنتى وقتنا فقد كنت لا أسمح لبناتى أن يقرأن كتابا لم يقرأه والدهن ، أو أخوهن الأكبر من قبل . أين أنتن اليوم مما كنا فيه ، وهـذه المـكاتب مفتوحة أمامكن يمكنكن أن تقرأن أى كتاب . أين أنتن منا ، وهأنت تعرفين ما لم أعرف ، بل ما لا أمل لى فى أن أعرف .

قلت : عفوا جدتى . ان وقتكن كان كله مشغولا . كنتن تعنين بشئون الدار عناية تستغرق كل وقتكن . اما اليـوم فالمخترعات الحديثة سهلت هـذا العمـل تسهيلا كبيرا . والمحترفون والمحترفات قاموا عنا بما كنتن ترين عارا أن يقوم لـكن به الغير . هذا كعك العيد مثلا الذى ترين الى اليوم انه لابد أن يصنع فى البيت ، انظرى كم من البيوت تشتريه من الخارج ، وكم تتسع وتتفنن محال الحلوى فى اتقانه بعد ان لم تـكن تصنعه أبدا ! ..

قالت : حقا يا ابنتى كم من الوقت كانت تأخذ منا هـذه الأشياء ، كان كعك العيـد يأخـذ منا أسـبوعا أو أكثر . ونحن اليوم نجتمع كلنا فى دار احـدانا نصنع لها كعكها كله ، وفى الغد عند الأخرى نصنع لها كعكها .. وهكذا حتى يأتى يوم العيد .

ـ كم كانت هـذه الجلسات حلوة . جلسات لا كلفة

فيهـا ولا تصنع ، جلسـات أهليـة كلها صفاء وكلها سرور . جلسات ليتكن تستطعن الاستمتاع بمثلها . لا يا ابنتى كنا أسعد حالا فى صداقتنا . قارنى بين جلستنا هذه وقد لبسنا كلنا أقل ملابسنا قيمة لأنا نعرف انها معرضة للاتساخ ، وقد جلسنا كلنا اخوات ، ان تألمت واحدة تألمنا لها كلنا وأشرنا عليها بما يفرج ألمها ، بل كثيرا ما نساعدها على ازالة أسباب الألم ، واذا ضحكت واحدة ، ضحكنا كلنا معها . قارنى بين مجالسنا هذه ومجالسكن وما يملؤها من تصنع ورياء . كان الأغلب على جلساتنا نحن الضحك والسرور والغالب على مجالسكن السخرية وتحقير الغير .

ـ هذه أيام الأعياد ، وكانت لنا أيام للأفراح أيضا . فاذا كانت بنت صديقة أو أختها ستتزوج ، فان هذا يأخذ من وقتنا شهرا كاملا أو يزيد . كنا نذهب فى بيت العروس لنخيط لها ثيابها وكل ما سيحتاج اليه منزلها. لم نكن نعرف الخياطات ، ولم يكن لهن وجود أيامنا الا قليلا . وكنا نخيط لأنفسنا ملابس لهذا الفرح ، فاذا أعجبنا قماش يا ابنتى لم نكن نخفيه أو نخفى ثمنه ومحله عن صديقاتنا كما تفعل أكثر فتيـات اليوم المجنونات بشىء اسمه « الجديد » أو « الذى لم يسبق له مثيل » . كنا نأخذ القماش نعرضه على صديقاتنا ونبين لهن مميزاته ، فان أعجب واحدة منهن اشترينا لها مثله ، حتى شكل الملابس نفسها ، ان أعجبنا شكل عرضه بعضنا على بعض، وربما ذهبنا الى نفس الدعوة ، ونحن اثنتان أو ثلاث بنفس اللباس من نفس القماش ، وعلى نفس الشكل لا نرى فى ذلك أثرا من القبح ولا نشعر ازاءه بأقل ضيق .

فان لم يكن عيد يا ابنتى أو فرح ، وقلما كانت تخلو أيامنا منهما ، اجتمعنا اجتماعاتنا العادية ، يوما عند هـذه ، والآخر عند تلك . وكثيرا ماكنا نجتمع فى منزلنا القديم لأتفه المناسبات . كانت صديقاتى يجتمعن عندى كل أسبوع لنستحم معا فى حمام بيتنا القديم . أتذكرين يا ابنتى هـذا الحمام الرخامى الواسع العريض ؟ أتذكرين أقسامه وأحواضه ومكانه من بيتنا القديم ؟..

قلت : ان فى ذاكرتى صورة منه عجيبة غريبة ، قد دخلته مرة واحدة على ما أذكر ، ومع هـذا فان صورته فى خيالى صورة غريبة فذة ، لا أذكرها الا شعرت بشىء من الرهبة والخوف .

قالت جدتى : فى هـذا الحمام يا ابنتى كنا نجتمع جميعا أنا وصديقاتى كل أسبوع نستحم فيه معا . كم شهد هـذا الحمام من لعبنا وجرينا . كم رددت جدرانه أصواتنا وضحكاتنا . ان هذا الحمام يا ابنتى ملىء بالذكريات العذاب ، ملىء بالصحف الجميلة ، صحف زماننا الذى لن يعود . لا أذكره الا ذكرت أسعد أيام حياتى وألذها . كل حزن كان يذوب فيه ، وكل هم كنا نتركه عند بابه . لا نعرف داخله الا الضحك والبشر .

ـ كانت هـذه تساعد تلك على تنظيف ظهرها ، أو تمشيط شعرها ، وكانت شعورنا حلوة طويلة تغطى أجسادنا الى النصف أو نحوه . كانت جمالا لنا لم نعمد اليها يوما بمقص نقصها ونميتها. كانت قطعا من أجسادنا نحرص عليها ونعنى بها كل العناية . وهذا ما بقى لى من شعرى الطويل الجميل .

وأمسكت جـدتى بشـعرها فاذا هو طويل ناعم كستنائى ، كانت به آثار جمال عفت معالمه ، وكانت به آثار عناية ما زالت توليها اياه رغم كبرها ووهنها .

قلت : جدتى ، وما السر فى انى أخاف صـورة هذا الحمام ؟ ..

قالت : يا ابنتى ان عصر هذا الحمام الجميل لم يدم طويلا . فقد ماتت صديقاتى واحدة اثر واحده ، ولقد مات جدك وأغلب أزواج صديقاتى ، فكانت لموتهم رنة حزن عميقة رجت كياننا رجا وبدلت حيـاتنا تبـديلا . أصبحنا لا نهتم كثيرا بمرح الحياة ولهوها . لبسنا الجد والحزن يا ابنتى فلم نعد نضحك الا قليلا . وكان هـذا الحمام أول ما شعر بما طرأ على حيـاتنا من تبديل . لم نعد اليه ولم ندخله ، اغلق الحمام وأصـبح مقفرا خاويا ، لا تجرى مياهه ولا تردد جدرانه صوت انسان. وأصابه يا ابنتى ما يصيب كل شىء مهجور : سـكنته العفاريت والأطياف ، سـكنته الأرواح بعد أن كانت تسكنه الأحيـاء . ما دخل خادم ينظفه بعد ماهجرناه الا جاءنى يرجونى أن أعفيه من عمله هذا ، فاذا ما قلت له : يابنى ان الذى تحسه أوهام لا صحة لها ، قال : « ياسيدتى مرينى أن أقوم لك بما تريدين الا تنظيف هـذا الحمام » . وعبثا حاولت معهم وعبثا غيرتهم ، فما يكاد يأتى الخادم الجديد ويلبث أياما حتى يعرف من سائر الخدم قصـة هـذا الحمام ، فلا يقربه ولا ينظفه بحال .

ـ ومن حسن حظى يا ابنتى ان الحمام كما قـد تتذكرين كان منزويا شيئا ما فى الدور الأسفل من المنزل،

فساعد هذا على أن نتجنبه وأن نغفل أمره .

ــ ومرت أعوام وأعوام ، والحمام مهجور من الأحياء مسكون بالأرواح حتى جاءت لك خادمك « رحمة » . وكانت « رحمة » هــذه ريفيــة لم تخدم الا فى بيوت الريف . وما أن وصلت الى المنزل حتى سمعت هى الأخرى قصة الحمام .

ــ وذات ليلة بينما كنا جالسين نسمر ، وقد تقــدم بنــا الليــل ، اذ عدت نحوى « رحمــــــة » تقول : « ســيدتى سيدتى ، أخفينى عندك ! » كانت المسكينة ترتعد فرقا وقد ابيض وجهها ولمعت عيناها من الخوف . كانت ترتعش باردة اليدين وهى لا تشعر بما تأتيه من حركات . وكانت دموعها جامدة فى عينيها تزيدهما بريقا ولمعانا .

ــ فقلت لها : يا ابنتى ، ما بك يا « رحمة ؟ » وأخذت أخفف عن المسكينة ما تحسه وأهون عليها أمر ما تفزع منه . واجتمع الخدم وأصحاب المنزل حولها . منهم من كان نائما فاستيقظ ، ومنهم من كان يستعد للنوم فتركه . وأخيرا استطاعت « رحمة » أن تنطق فقالت : « سيدتى ، ان عفريتة خرجت لى من الحمام ونادتنى بصوت خافت محشرج : « يارحمــة ، يارحمــة » وما ســمعت هــذا الصــوت ياسيــدتى حتى عدوت على السلم أفرمنهــا . وأنا أحس ان رجلى انفصلتا عنى . فاذا نور خافت باهت ، ولــكنه ظاهر ، وسط هــــذا الظلام الدامس ، تبعنى ورائى على السلم . واذا الصوت يعود ثانية : « مالك خائفة يارحمــــة ؟.. رحمــــة !.. رحمة ! » ولم ألتفت ورائى من شدة الخوف ، وانما

عدوت اليك هنا ياسيدتى ، ولست أعرف أين ذهبت تلك الروح » .

ـ منذ تلك الليلة يا ابنتى والخدم لا يقربون الحمام ليلا بحال . منذ تلك الليلة وكل خادم تمر بالحمام ليلا تعود الى النور خائفة زاعمة انها سمعت صوتا يناديها . وان الصوت صوت امرأة محشرج كأنما صاحبه يتألم من شيء .

ـ وكنت يا ابنتى أريد أن أتحقق مما يقولون ، فاذا ما قوى عزمى يوما أحاط بى خدمى ينهوننى عن هـذا ويستحلفوننى ألا أذهب ناحية الحمام ليلا . ولا أكذبك يا ابنتى ، فكثيرا ما كان يعوقنى خوف واضطراب عصبى عن أن أجرب الأمر بنفسى ! ..

ـ وكان أولادى ينهرون الخدم ويلومونهم على هـذه الغفلة وهـذا الجهل . وكان منهم من ذهب بنفسـه ناحيـة الحمام ليلا ليثبت لهم ان ليس ثمة شيء . ولكن حجتهم كانت دائما ان العفريتة لا تظهـر الا اذا كان الشخص وحده ، وانها تخاف النور كسائر العفاريت فلا تظهر فيه .

ـ وذات ليلة جاءتنى « رحمـة » خائفة ، تبكى من الخوف وهى تقول : « سيدتى ، لقد كذبنى سيـدى وكذبتمونى كلـكم يوم حدثتكم عن العفريتة التى تئن فى الحمام . فتعالى الى السلم واسمعى بنفسك أنينها . سيدتى ، لا أستطيع أن أمكث فى البيت بعد اليوم ، وان كنت لا أحب أن أفارقـكم بعد هذه العشرة » .

ـ وقمت يا ابنتى خائفة أستر خوفى ، فيخفى حينا ويظهر حينـا آخر . وعلى حافة السلم وقفت أنصت

الى جهة الحمام ، فاذا صوت يئن ويتألم ، صوت ليس آدميا ، وانما كثير الشبه به ، يئن ويتألم طورا خافتا ، وطورا عاليا . وكان الصوت فيما يظهر ينبعث من أبعد مكان فى الحمام ، فتردد جدران الحمام الصوت ، ويردده صحن الدار حيث السلم ، فيصل الى آذاننا ضعيفا غريبا . ولكنه صوت أنين دون شك .

— وتمثلت صوت صديقاتى واحدة واحدة ، فاذا هو صوت احداهن ، صوت عائشة كما كانت تئن ساعة ألمها من مرضها الأخير الذى ماتت به . ولم أطق سماع أكثر مما سمعت . وقد كنت خائفة جدا . فأنرنا الأنوار ، فاذا الصوت ينبعث من الحمام كما كان لايخفيه الا أصواتنا .

— ولما جاء ولدى الكبير قلت له : تعال معى . وأسمعته الصوت . أنصت أولا وأنكر ثانيا ، ولكنه آمن أخيرا وأحس الخوف والرهبة . قلت : يابنى هيا بنا الى الحمام ، ومعنا مصباح نكشف الأمر . قلتها يا ابنتى وأنا لا أقصدها ، وأنا عازمة على ألا أنفذها ، وانما قلتها حتى أظهر شجاعة أمام ولدى . وكنت أدعو الله فى سرى ألا يقبل عرضى . وأخيرا يا ابنتى قال لى : وكأنما انتشلنى من يم كدت أغرق فى مياهه : « لا يا أماه ليس من الحكمة أن نفعل هذا الآن ، وانما غدا صباحا سننظف هذا الحمام وسنبحث عن مصدر هذا الصوت » . قلت : كما تريد يابنى . وكأنما الأرواح ستظهر فى النهار يا ابنتى أو كأنما الباحث عن العفاريت يمكن أن يعثر عليها .

— وفى الغد دخل ولدى وأنا وراءه والخدم من ورائنا فاذا الكلبة « عزيزة » وأمامها ستة أجراء

ولدتهم أمس داخل الحمام المهجور الذى لم يسكنه بعدنا الا الأطياف والأرواح .

— لم ينف هذا من أذهان الخدم ان الحمام مسكون وأن الأرواح ترقص وتغنى وتنادى وتئن وتعيش فيه عيشة دائمة . وظلت سيرة الحمام وناحية الحمام بالليل غيرهما بالنهار ، ففى النهار يقربونه وينظفونه ويجلسون فيه ، فاذا ما غربت الشمس تركوه للعفاريت تظهر وتفعل فيه ما تريد .

ووقفت جدتى فى حديثها وأنصتت وقد سمعنا حركة أقدام آتية ، ونظرت جدتى نظرة من يرتاب فى مصدر هذا الصوت . فراقبتها قليلا ولكنى استطعت أن أخلص بسرعة من جو العفاريت الذى خلفه حديث جدتى وقلت لها ضاحكة :

ماذا ؟ .. عفاريت جديدة ! ..

قالت : يا ابنتى لا سمح الله . كفى الله هذا المنزل شر الحزن الذى يؤثر فى أعصاب أهله فيرهف حسهم لسماع أصوات العفاريت وحركاتهم . لم تعرف العفاريت طريقها الى منزلنا سواء أكان صدقا أم كذبا الا بعد أن انطفأ سراج البيت ، بعد أن مات زوجى . كان صوته يطرد كل وحشة وينفى كل احساس نحسه نحو المهجور من الأشياء . كان صوته يملأ البيت حياة ، فطورا مرحا ، وطورا غضبا ولكنه الحياة على كل حال ، لا الموت . منذ مات زوجى . . .

وأردت أن أداعب جدتى ، قلت : ولم لم تتزوجى ثانية ياجدتى ؟ .. ان زوجك مات وأنت فى شبابك ؟..

فالتفتت الى وكأنما كنت قد طعنتها بكلماتى . وكأنما

كانت ستندفع فى لومى ، لكنها تداركت نفسها وقد فهمت انى انما أردت مداعبتها فأخطأت السبيل ، وقالت فى لهجة مؤثرة حزينة :

ـ لا يا ابنتى ، ولا فى الدعابة أحب لك أن تقربى مثل هذا الحديث . أنا واثقة انك تقدرين ما عملت . بل أنا واثقة انك لو كنت مكانى ما سمحت لك نفسك بأن تفعلى أقل مما فعلت .

قلت آسفة نادمة : ما أردت ياجدنى الا مداعبة بريئة ، فعفوا ان كنت قد آذيت عاطفة من عواطفك ، فأنا أحرص ما أكون على ألا أمس عاطفتك ، ولو فى دعابة.

وكأنما أسفت جدتى فقالت :

ـ أنا أعرف يا ابنتى بما تحسين ، وهأنذا أقص عليك شيئا طريفا فى هذا الصدد . عسى أن تكون قصتى هذه أحسن ما نختم به حديثنا الليلة ، فقد طال الحديث وتنوع ، وتشتتت أفكارنا فيه . فأصغى الى :

ـ كان زوجى ضابطا كبيرا فى الجيش ، سافر مع أكثر أصدقائه ، وهم أزواج صديقاتى ، الى حرب الحبشة . وكان وداعه لنا يوم السفر مؤثرا بالغا فى التأثير ، كأنما كان يحس شيئا مما قد قدر له . وكيف لا يحس الجندى المحارب ان حياته فى الموقعة معلقة بأوهى سبب ؟.. كم كان كريما وهو يوصى أبناءه وما يزيد عمر أكبرهم عن الثامنة عشرة أن يطيعونى وأن يرعونى فى غيابه !.. سافر يا ابنتى ، فكانت مهمتى شاقة فى غيابه . ففوق القلق الذى كنت أحسه عليه ، وفوق الخوف الذى كنت أخافه مما يحتمل أن

يلم به . فوق كل هـذا كان أطفـالى صغيرى السن ، وكانوا يحبون كثرة اللعب وكثرة التـدمير . وكم كان اسماعيل شيطانا فى هـذه المـدة !.. كان كثير اللعب كثير الاتلاف . ولـكن ولدى الـكبير كان أكثرهم هدوءا واوفرهم عقلا . كثيرا ما كان ينهى اخوته عما هم فيه . فـكان منظره هـذا يؤلمنى جدا . كم كان يؤثر فى قوله لهم : ان أباهم يجب أن يعود ليراهم أحسن مما كانوا عليه ، كم كان حليما معهم ، وكم كان شـديد الأثر فى تهدئتى كلما هممت أن أقسوا على أحدهم فى عقاب !.. كأنما المسكين قد أحس ان عبء هؤلاء ملقى على عاتقه هو . كأنما كان يحس سلفا بما سيلقيه عليه الدهر من أعبـاء ثقال . كأنما قد أحس ان تربيـة هؤلاء ، وشق الطريق لهم فى الحياة من واجبـاته هو فى غياب أبيه .

ـ وازدادت هواجسى على جدك ، وبدأت أحس أن شيئا أصـاب الجيش ، اضطره الى هـذه الغيبة . أن الحرب هائلة يا ابنتى فى كل عصر وفى كل مكان ، ولكنها كانت أكثر أهوالا ومشاق اذ ذاك . ان الاختـراعات الحديثة ان كانت قد أكسبت القوى قوة ، وان كانت قد سهلت سبل الفتك والدمار ، فانها دون شـك سهلت الموت على أصحابه ، أصبح الموت هينا يسيرا لا يكلف الا عذاب دقيقـة أو جزءا من دقيقة . زادوا فى قوة الموت ، فزادوا عدد الضحايا ، ولـكنهم لم يزيدوا الألم على من قدر عليه الموت .

ـ أما قديما ، فـكان الجندى يذوق الموت قليـلا قليلا . يسير وسـط الصحارى القفرة على ظهر حصانه أو راجلا . فيتألم من مشـاق الطريق وحره . كان العطش يفتـك بهم حتى يضـطروا الى مص الطين

ليستخرجوا منه ماء ، وأخيرا يلقى الجندى العــدو ، فقلما تصيبه طعنة تدفع اليه الموت عاجلا ، وانما هى طعنــة تفتح عليه أبواب الآلام على اختــلافها ، ابواب آلام آخرها الموت غالبا ، ولــكنه الموت بعد طول العذاب : يحس آلام الطعنة أياما ، بل أسابيع ، ثم آلام الخوف من الموت ، ثم آلام اليأس والصبر اليائس الممض . وأخيرا يأتيه الموت متهاديا متدللا بعد أن يكون قد جسم فيه كل الفرج ، بعد أن طال انتظاره له ليريحه من يأســـه وحزنه وألمه .

ـ كنت أقدر كل آلام الموت وأهواله ، فأشفق على زوجى كل الشفقة . ثم أتصــور حالى من بعـــده ، وأولادى كلهم ما يزالون صغارا يحتاجون الى ارشاده فى الحياة فيزداد اشفاقى ويحز الألم فى نفسى حزا .

ـ ولا أطيــل عليك ، فقــد نفــذ المقــدور ، ودق ناقوس الموت فى حيــاتى وحيــاة أبنائى ، فقبر كل آمالنا ، وصــبغ كل أحلامنــا بصبغة الموت اليائســة الحزينة . جاءنى خبــر موت زوجى ، فلا أحاول أن أصف لك حزنى وآلامى ، وانما يكفى أن تعرفى انه كان الشخص الوحيــد الذى كنت أعرفه وأعتمــد عليه فى حيــاتى . لم يكن لى أخ ، ولا عم ، ولا خال ، ولا أب . كان هو كل أقاربى ، وكان أبا لأبنائى ، فليس لهم من بعــده غيرى . على أنا وحدى وقع عبء تنشئة هؤلاء الصــغار ، وارشــاد الــكبار ومســاعدتهم على شق طريقهم فى الحياة . ولست أصف لك يا ابنتى وقع هذا الخبر فى نفسى ، أطفــالى وأولادى ، فموت عميد الأسرة ليس من الخطوب المستهانة . هو الخطب الذى يتحدد الحزن من أجله كل حين . كل أمر كان يكون له فيه شــأن ، كل عبء كان يكفينا حمله ، كل عمل كان يقوم

لنا به ، كل صغيرة ، وكل كبيرة تذكرنا به كل يوم مدى الحياة .

ــ وكان يسكن جوارنا رجل متوسط السن ، صديق لزوجى ، بل من أشد أصدقائه صلة به . ما كاد يسمع بموت جدك حتى جاءنا يعزينا . فلقى أولادى وقبلهم ، وانهمرت دموعه فاختلطت بدموعهم . وكان هذا الرجل كريما خيرا طيب القلب . فجعلها عادة من عاداته أن يمر علينا كلما استطاع ، يسألنا حاجة يقضيها لنا ، ويأتى أطفالى بلعب أو فاكهة أو أى شيء يكونون قد طلبوه منه . وما كان يصل الى باب المنزل حتى يرسل الى الخادم بأنه أتى ، وانه يسلم على ويسألنى : أهناك خدمة يستطيع أن يقوم بها من أجلى ، أو من أجل أولادى ، وكنت أستثقل أن أذكر له كل طلباتى ، ولا أسأله الا ما أضطر اليه فيه اضطرارا . ولكن أولادى كثيرا ما كانوا يطلبون منه أشياء يقضيها لهم ، وهو مرتاح البال راضى القلب ، لأنه كان يشعر انه يؤدى بذلك حق الوفاء لصديقه الراحل .

ــ ولكن يا ابنتى جاءنى يوما ولدى ابراهيم ومعه اسماعيل وقالا لى : « يا أماه ان الرجل صديق والدنا سألنا أن نعرض عليك أمرا » قلت : وما هو ؟.. فارتبك الكبير ، ولكن اسماعيل أخذ يضحك ويأتى بحركات من يريد أن يخفى ضحكه . قال ولدى الكبير : يا أماه ، انه يعرض عليك أن تكونى له زوجة ، ففى ذلك راحة لك ولأولادك .

ــ وصعد الدم حارا فى وجهى ورأسى فألهبهما . وأخذت أسب الرجل سبا شديدا واندفعت نحو

حجرة زوجى التى ظلت مغلقة منــذ وفاته . ومن صندوق كبير كنت قد وضعت فيه كل ملابس زوجى الراحـــل أخرجت سوطا سودانيا كان يحمله المرحوم ، وأسرعت بالســوط أريد أن أنزل الى صــديق زوجى أضربه به ضربة تذكره ما هو الوفاء للزوج !

ــ ورآنى اسماعيل الشيطان ، وأنا أخرج السوط ، فعرف اللعين قصدى . وعدا نحو الصديق يقول له :

ــ ياعم ، اسرع ، اهرب ، ان أمى آتيــة لتضربك بسوط المرحوم أبى . ويصف لى ابراهيم ولدى كيف بهت الرجل ودهش ، وكيف فر هاربا قبل أن أدركه .

ــ كان يرى فى طلبــه شيئا عاديا ، فما دام أولادى محتاجين الى من يرعاهم ، وما دمت وحيــدة فى هــذا البلد محتاجة الى من يقوم لى بأعمالى الخارجية ، فمن المعقول أن يتقدم هو الينا يعرض علينــا أن يقوم بــكل هــذه الأعمال ، وأن يكون هــذا واجبا عليه بزواجه منى .

ــ كم سخطت على هــذا الرجل وكم لعنته . وظللت مغيظة منه أياما ، بل أســابيع . ومن يومها يا ابنتى أرسلت اليه ألا يخطو عتبة دارى أبدا . لقد ظن الرجل ان احتيــاجى الى من يقوم بأعمالى وأعمال أولادى يبرر أن أخون ذكرى زوجى . زوجى الذى مات ميتة مجيدة فى سبيل الوطن ، بل فى ميــدان الحرب ، غريبــا عن وطنــه بعيــدا عن أهــله . زوجى الذى عاش شريفــا ومات مجيدا ، وكان مخلصا لى ولأولادى كل الاخلاص ، وكان محبا لى ولهم كل الحب ، وكان يحترمنى أشــد احتــرام . لا يا ابنتى ، لو كان زوجى أقل مما كان

ما تزوجت من بعده ، فكيف به وهو ما وصفت . ثم أولادى ، أليس لهؤلاء حق على ؟.. فكيف أتركهم ، لأعنى بزوج جديد ! ..

ــ ولكن اسماعيل ابنى أبى الا أن يجعل من قصة طلب الزواج هذه نكتة مضحكة يقصها على صديقاتى. فما يكاد اللعين يصل بيت احداهن حتى يقول لها : « أتعرفين ياخالة ماصنعت أمى بفلان ؟ » فتقول : « كلا ؟ » . يقول : « لقد همت أن تضربه بسوط المرحوم أبى ، لأنه طلب أن يتزوجها». ويتفنن اسماعيل فى الوصف ، وصفى وأنا ثائرة هائجة ، ووصف الرجل دهشا مبهوتا . فتضحك الصديقة ويضحك كل من معها.

ــ وكانت صديقاتى بعدها يلقيننى فيلمننى على هذا العمل ، ويقلن لى : « أما كنت تستطيعين أن ترديه برفق ؟ » فأقول لهن : كلا ، أنا لا أعرف معنى للرفق وأنا ثائرة ، ولا أفهم ان ذكرى المرحوم زوجى تمس أو تخدش ولا أثور .

ــ وكرت الأيام سريعة فى دورتها كأنما عصا تلهبها فتعدو لا تنظر الا الى الأمام ، فاذا صديقاتى كلهن مثلى أرامل لم تتزوج منهن واحدة بعد موت زوجها فى حرب الحبشة . وكن يتندرن ويقلن لى : « كله منك انت ، فلولا ما صنعت فى فلان لما ابتعد الرجال عنا ، ولانفروا منا . لم يطلبنا أحد لأنهم ظنوا اننا سنضربهم بالسوط السودانى ، كما هممت أن تفعلى أنت » . فكنت أقول القائلة : كلا ، خيرا فعلت ، ان العمر واحد ويجب أن يعاش على أكمل وجه ، أمامك أطفالك حقوقهم عليك أولى من حقوق زوج جديد . لا ، خيرا فعلت ، وسيذكر لك أبناؤك انك وضعت واجبك نحوهم فوق كل شىء .

— ٥ —

كانت القبيلة هادئة آمنة سائرة فى أعمالها العادية ، فاذا واحد منها يعدو اليها قائلا فى خوف وهلع : « العدو » . وأنصت أهل القبيلة ، فاذا دبيب خيل العدو يكاد يكون مسموعا . وكانت أخبار وصلت القبيلة عن عتو هذا العدو وجبروته ، فلم تر من العقل أن تصبر لتحاربه ، وتصده عن وطنها . وانما رأت ان الأبقى لها والأسلم أن تحزم أمتعتها فى سرعة ، وأن تهاجر هذا الوطن الذى آواها زمنا ، كارهة هذه الهجرة ، تحس لها ألما دفينا بليغا . وكانت أصوات العدو تقترب حينا فحينا ، وكانت خيل القبيلة تعدو بما عليها نحو الجنوب الى الغرب .

ووقف شيخ القبيلة يؤدى أمانة المشيخة الى آخر لحظة من لحظات الأمن . يدفع هذا ويحث ذاك ، حتى يتسنى له أن يسير فى الخلف . فان شيخ القبيلة حقا يجب أن يواجه عدو قبيلته من حيث أتى .

وغربت الشمس ، وتركت وراءها شعاعا من النور يشع فى الأفق ، كأنما هو ذكرى تبعثها الى أهل القبيلة . ذكرى يوم من أيام وطنهم مشمس جميل . وكان يوما فذا بين أيام هذه القبيلة ، التى لم تكن لترى الشمس الا نادرا ، ولكنه لم يختم الا بحادث فذ أيضا ، هو قدوم العدو الجبار .

وفى الليل القارس البرد ، وقد اشتد بالقبيلة الجهد والتعب ، وقفت قليــلا من ســيرها الجنوبى السريع لتتفقد أفرادها ، فاذا منهم من ضل ، ومنهم من قتل برصــاص العــدو . واذا هــذه الأم البائسة التى تضم ابنتها الى صــدرها . هــذه الأم التى عهــد بها شيخ القبيلة الى فارس قوى ليهرب بها الى المدينة . اذا هذه الأم تسأل عن الشيخ زوجهــا ، فيخبرها غير واحد ، انه قتــل برصــاص العــدو . وانه صــاح بهم ، وهو يجاهد الموت : « أن جدوا فى سيركم فلا نجاة لــكم ان لم تبلغوا المدينة قبــل الفجر » . وهكذا أدى الشيخ واجبه الى آخر لحظة من لحظات الحياة .

وما سمع الفرســان قول بعضهم ، حتى شــدوا رحالهم وركبوا أفراسهم ، واستأنفوا ســيرهم السريع المخيف . لا يعبــأون بشىء حتى ولا بتلك الأم ، التى ما زالت تتوسل اليهم أن يتركوها تعود تبحث عن جسم زوجها لتموت الى جنبه .

وبدأت أجراس الخيل تدق دقاتها من جديد ، سريعة مضطربة خاطفة ، وبدأت قلوب الهاربين المهــاجرين الجائعين تدق دقات لا تقل عن دقات الأجراس اضطرابا وعنفا وسرعة . وما كاد نور الفجر يختلط بسواد الليل بياضا ، حتى لمحوا أبواب المدينــة ، فارتموا ازاءها ، منهوكين متعبين جائعين ، لا يتصلون بالحيــاة الا بأقل الأســـباب وأوهاها .

وفى الصــباح قام أهل المدينة من رقاد سعيد هنىء مريح ، ليروا هــذه القبيــلة الجائعة التعبة ، منبثة فى شوارعهم تطلب الطعــام ولو بأعز ما يمكن أن يبــذله الانسان ، تطلب الطعام ثمنا لفلذات الأكباد .

وكانت هذه الأم بعد أن قتل زوجها ، وحيدة بائسة ، تضم فتاتها الصغيرة التى لم تبلغ بعد الرابعة الى صدرها الذى لم يقو الحزن على أن يلهبه لضعف هذا الجسم ، وقلة ما يسرى فيه من دم الحياة . وكانت دموع الأم تنحدر من عينيها على جسم هذه الصغيرة الباكية ، فتؤلف منظرا مؤلما غاية الألم كانت الأم جائعة ، وكانت الطفلة على وشك الموت ، وليس لديهما ما يبيعان أو يستبدلان به طعاما . والجوع عات جبار يخول لصاحبه أى عمل ، بل أى جريمة . ولكنه لم يستطع أن يقهر قلب تلك الأم ، فلم تستطع بعد أن تنزل عن ابنتها ثمنا لطعام تسد به حاجة بطنها الثائر .

وطافت الأم وابنتها فى الشوارع ، بطيئة الخطا واهية تعبة ، تحاول أن تسأل الصدقة من المارين ، فيخونها لسانها ولا تقوى على ما لم تتعوده نفسها من قبل .

وعلى باب قصر عظيم وقفت تنظر اليه . كأنما تسائل ربها السر فى انها هى وابنتها تبكيان كسرة خبز فلا تجدانها ، بينما صاحبة هذا القصر تنعم بكل ما فى الدنيا من نعيم . وفتحت نافذة القصر ، وأطلت منها السيدة صاحبته ، جميلة بدينة ، عليها آثار النعمة واضحة جلية ، وآثار الاطمئنان والرضا أوضح وأبين . ولمحت تلك البائسة تجر الخطا ، حاملة عبئها الخفيف المولول الباكى . فأرسلت خادمها ينادى تلك المهاجرة .

وكان منظر المهاجرين الجائعين فى عاصمة الأتراك ، منظرا شائعا فى هذا العصر . ولقد سمعت السيدة بوصول قبيلة طاردها أعداؤها فهاجرت من بقعتها حتى وصلت الى المدينة ، تعرض بناتها وابناءها فى سوق

الرقيق ثمنا للحياة . وفهمت السيدة ان هذه لابد أن تكون مهاجرة ضلت السبيل الى سوق الرقيق .

ولما رأت السيدة هذا العبء الصغير على كتف المهاجرة ، قالت لها فى لهفة كأنما وجدت طلبتها : « أهذه ابنتك ؟ » قالت : « نعم » قالت : « أتبيعينها ؟ » قالت : « كلا » .

ولكن الصغيرة ذات العينين العسليتين الواسعتين المحدقتين من الضعف ، ذات الشعر الكستنائى الناعم الطويل ، ذات الأنف الدقيق والفم الصغير أثارت شيئا غير قليل من العطف والحنو الشديدين فى قلب تلك السيدة العقيم .

فقالت السيدة : « انك جائعة فقيرة مهاجرة قد يلحقك الموت ، فتعذب ابنتك الصغيرة أمر عذاب ، فما ضرك لو بعتها فأنقذت حياتك وحياتها . هل أنت أول من يضطرها الجوع الجبار الى بيع فلذة كبدها ؟ لست الأولى وثقى انك لن تكونى الأخيرة » .

قالت البائسة : « عفوا سيدتى ، لأن أموت جوعا أحب الى من أن أقبض ثمنا لابنتى ، لن تكون ابنتى أمة أو خادما ليشبع بطنى وبطنها .. لا لن أفرض على نفسى ولا على ابنتى ذلا أكثر مما فرضت علينا الحياة » .

قالت صاحبة القصر فى تأثر عميق : « لن تكون ابنتك أمة ، ستكون سيدة ، سيدة هذا القصر الواسع العظيم . ستكون ابنتى ، انا لأنى عقيم أشتاق الى الأطفال أمر اشتياق وآلمه » وبكت السيدة وهى تقول : « لن أحرمك ابنتك ، وانما كل ما أطلبه منك هو أن أشاركك فيها . وان تفيدى انت من هذه الشركة :

فانك كما أرى تعفين عن أن تفيدى من ابنتك شيئا ، وانما التى ستفيد هى ابنتك . لا تكونى سببا فى موتها ، انها صغيرة بريئة ، ولئن ملكت حق نفسك فأنت لا تملكين حقها . هذه فرصة قد لا تسنح لها فى حياتها ، ان تربى وأن تتعلم وأن تهذب وأن تكون كابنتى أنا . فكرى فى الأمر قليلا ... »

ولكن بكاء الطفلة وصياحها : « أماه أنى جائعة ! انى جائعة ! » وقف كل تفكير ولم يبق للام المسكينة الا ان تسلم . فقالت فى صوت تخنقه العبرات : « ولكن سيدتى ستسمحين لى أن أراها كل يوم ، أو كلما زاد بى الحنين ؟ » . قالت صاحبة القصر الكريمة : « البيت بيتك ترينها وقتما تشائين » . وهمت الأم بأن ترحل . فقالت لها صاحبة القصر : « والى أين ؟ » والآن فقط فكرت الأم ، والى أين تسير ؟ ليس لها مكان تأوى اليه ، فقد جابت طرق العاصمة خلال هذين اليومين فلم تجد أى مأوى . واستحلفتها صاحبة القصر ان تظل عندها ضيفة حتى تجد لهذا السؤال جوابا : حتى تعرف الى أين تسير .

نالت الأم من اكرام السيدة الكريمة ما أنساها بعض آلام الذل المفاجىء الذى طرأ عليها ، وبعض آلام الطريق الشاق السريع بين الجبال ليلا ، والطريق الهادىء الحزين فى شوارع العاصمة ، وبعض آلامها وهى شريدة جائعة خائرة القوى محطمة الأمل . ولكن مثل هذه الآثار لا تنمحى هكذا سريعا ، فسرعان ما أحست الأم آلاما لم تمهلها أياما حتى أودت بحياتها .

ظلت الصغيرة فى القصر مكرمة معززة ، تبذل السيدة الكريمة من مالها ومن وقتها ومن حبها وعنايتها كل

ما يمكن أن تبذل أم حقا فى سبيل ابنتها . فكبرت الصغيره ، واذا هى شابة جميلة مثقفة متعلمة بقدر ماكانت فتيات عصرها مثقفات متعلمات . تجيد العزف على آلة أو آلتين من آلات الموسيقى ، وتعرف آداب الاجتماعات على النحو التركى معرفة تامة متقنة حتى لتكاد تكون طبيعة ثانية لها من كثرة ما دربت عليها وما مارستها .

وشاء القدر أن يغضب السلطان على صاحب القصر زوج لسيدة الكريمة ، فأمر بأن ينفى هو وأسرته وأن تباع كل ممتلكاته حتى اماؤه وعبيده . وصعب على السيدة أن تبيع الفتاة بعد أن أحبتها وبعد أن أنفقت فى سبيل تعليمها وتأديبها ما أنفقت . ولكن أمر السلطان جبار يجب أن يطاع ، ثم هى لا تستطيع أخذ الفتاة معها وهى مهاجره مع زوجها بلا مال ولا زاد . وفكرت السيدة طويلا فى أمر الفتاة ، وأخيرا رأت انها لما لها من جمال ، وما هى عليه من تعليم وتربية قد تباع فى سوق الرقيق الى سيد عظيم يعنى بها ، ويمهد لها العيش الرغيد الهنىء . وجاءها بائع الرقيق ، فأوصته بالفتاة خيرا ، وقالت له : « ان لم تجد لها شاريا كريما فاياك أن تبيعها ، وانما عد الى بعد أيام فى ضواحى المدينة فآخذها منك ، وسأكافئك على عملك » . قال : « سيدتى ، اطمئنى ، فان خديو مصر اسماعيل باشا قد أرسل فى طلب أربعين من الجوارى الحسان ، لأنه يريد أن يؤلف منهن فرقة للموسيقى ، تعزف له فى القصر ، وقد سمعت ان فتاتك تجيد العزف على بضع آلات موسيقية ، فسيكون ثمنها غاليا ، وسيكون مصيرها الى سراى خديو مصر ،

حيث تعيش فى نعيم القصور وعز الملوك » .

فرحت السيدة أيما فرح ، فقد أصبح يستحيل عليها أن تتيح لفتاتها النعيم الذى أتاحته لها الى اليوم ، وكذلك يستحيل عليها أن تراها ـ وهى التى تحبها كابنتها ـ تذوق الذل ، والفقر ، والجوع ، بعد العز والنعيم ، ورغد العيش .

وبيعت الفتاة ، وجاءت الى مصر ، وأصبحت ضمن فرقة موسيقى الخديو اسماعيل . وعاشت فى القصر عيشة هنيئة سعيدة . كانت هى وبنات فرقتها كالأخوات حقا ، يمضين اليوم كله فى هناء ، وعزف على آلات الموسيقى ، حتى اذا جاء وقت الطعام سواء أكان ظهرا أم عشاء ، ارتدين ملابس معينة ، وعدون الى غرفة الطعام الفاخرة ، يعزفن للخديو وأضيافه أثناء تناولهم الطعام . وكان منظر هؤلاء الفتيات جميلا حقا ، وقد ارتدين كلهن ملابس واحدة ، كملابس الرجال من القطيفة الحمراء أو الخضراء ، مزينة بأزرار من الذهب ، وأشرطة مقصبة . كانت فرقتهن جميلة حقا ، جميلة بأفرادها وبملابسها وبعزفها .

وكانت لهؤلاء الفتيات مكانة خاصة فى القصر ، فهن أصحاب فن جئن ليخدمن لا ليخدمن . كانت جوارى القصر و «أغواته» يخدمونهن ويقضون لهن كل حوائجهن . وكان الخديو الكريم يغدق عليهن المال اغداقا . فمال فى الصيف ، وآخر فى الشتاء للكسوة وما اليها ، ثم مرتب كل شهر لكل واحدة منهن ، كأنه أجر عما تقوم به من عمل .

وكانت العادة المتبعة اذ ذاك فى شراء الرقيق ، أن

يسمى شارى العبد أو الجارية الاسم الذى يروق له ، وأن يذكر هذا الاسم فى عقد الشراء ، وسمى الخديو الفتاة « انجساس » ، فعرفت بهذا الاسم ، ونسى اسمها القديم تماما .

عاشت « انجساس » عيشة هنيئة حقا فى القصر ، ولكن الزمن لابد أن يسير ، ولابد فى سيره من تغيير . وتبدلت حال خديو مصر ، فأراد أن يتخلص من هذا الجيش العظيم من فتيات القصر ، فأخذ يزوجهن من ضباطه وحرسه واحدة ، اثر واحدة .

هذا ما قصته على جدتى أمس ، وهى تتم لى حديثها الليلة :

– وبين هذا الحرس ، حرس السراى ، كان ولدى الكبير يا ابنتى ، وكان وفيا لسيده ، أمينا فى خدمته. فكان مقربا محبوبا لديه . وأراد الخديو أن يزوجه فتاة طيبة كريمة جميلة من فتيات قصره ، فزوجه تلك الفتاة « انجساس » .

– وجاءت « انجساس » الى بيتنا غريبة عنا ، بعيدة عن جونا كل البعد ، ولكنها فى الوقت نفسه تثبت لرائيها لأول مرة انها جديرة بالحب والاحترام . زوجت أولادى بعد ذلك واحدا بعد واحد ، فلم أجد من أزواجهم واحدة نزلت من نفسى منزلة « انجساس » لا بعد طول العشرة ولا قبلها . أحببتها يا ابنتى ، فكان كل يوم يمر بعد يثبت لى انى لم أكن مخطئة فى هذا الحب ، بل يثبت لى انى مقصرة فيه ، فأود لو أستطيع أن أحبها أكثر مما أحببت .

– بعد عز القصر وخيره العميم الوفير ، بعد المال

الذى كان فى يديها واقرأ كثيرا ، بعد هذا العدد الكبير من الجوارى السود و«الأغوات» كلهم يخدمونها ويقضون لها حاجاتها ، جاءت الى بيت زوجها ، فاذا المال لابد فيه من اقتصاد حتى يفى بحوائج الأخوة والأم ، واذا الخدم عدد محدود يشاركها فيهم كل من فى الدار ، واذا الملبس واذا المأكل واذا كل شىء ينقص عدده وتقل قيمته . ولكنها كانت دائما سعيدة ودائما راضية ، لم أسمعها يوما تشكو ، ولم تشعرنى يوما انها تحن الى حياة القصر .

ـ كانت تحب ابنى وتحترمه احتراما عظيما ، وتقوم على خدمته ، وهى التى لم تخدم انسانا قبل فى حياتها . عاشت فى كنف الأم أربعة أعوام ، كان لابد لها فيها من أن تخدم ، وعاشت فى كنف السيدة التركية الثرية عشرة أعوام مخدومة مكرمة معززة ، فقد كانت تعامل كأنما هى ابنة صاحبة القصر حقا ، وعاشت فى سراى الخديو عزيزة مكرمة مخدومة يحرص الكل على رضاها . وجاءت الى بيتنا ، فاذا فقر نسبى ، واذا واجبات تلقى على عاتقها القاء فتقوم بها كلها مبتسمة راضية .

ـ كانت يا ابنتى تحبنى حقا وتشعرنى انى منها بمنزلة الأم . تحنو على وتتفانى فى راحتى وخدمتى ، فاذا مرضت جلست بجوارى الليالى ساهرة لا تنام ولا ترضى بأن يعنى بى أحد سواها . وكان ابنى يحبها حبا جما ، ويحرص على رضاها كل الحرص ويحترمها كل الاحترام. عاشت بيننا ماعاشت معززة مكرمة ، لا تقصر فى واجب نحو أحد منا ، فلا يقصر أحد فى واجب نحوها . عرفت كيف تستميل قلوبنا ، وكيف تشعرنا بأنها لا تمتاز منا الا بأخلاقها الكريمة النبيلة . زوجت

ابنى رأفت فكانت زوجة جافة شرسة الطباع ، تريد أن تفرض احترامها على كل من فى البيت ، فلا تظفر الا بالسخرية والبغض . كان الخدم لا يحبونها ، وكان أبنائى الصغار يأنفون من أن يضحكوا معها أو يسألوها شيئا ، أو يعاملوها أى معاملة ، الا ولدى اسماعيل ، فقد كان شيطانا معها كما هو فى كل أطوار حياته ومع كل من يعرف . كان يحاول كثيرا أن يغيظها فتثور وتفور وتسب وتغضب وتتركنا جميعا لتعتصم فى غرفتها فلا يسأل عنها أحد ، فاذا بها تعود ثانيه مغتاظة حانقة. وكان اسماعيل يغيظ زوج ابنى الكبير « انجساس » فتغتاظ لكن فى غير ثوره ولا حمق . تغتاظ قليلا ولكنها ما تلبث أن تضحك معنا ومعه ، وما تلبث أن تحاول نصحه بألا يعود الى ما عمل فتظفر منه بالحب والولاء ، ولا يعود الى غيظها الا كلما ألحت عليه غريزته الحاحا .

ــ شتان بينهما يا ابنتى ، زوج ابنى رأفت و « انجساس » كانتا فى منزلة واحدة من القرابة ولكن أين منزلة الواحدة من الثانية فى قلبى ؟.. بل أين منزلتها من الأخرى فى قلب كل من فى المنزل ، سادة كانوا أم خدما ؟.. ان الأخلاق والمعاملة ان لم تؤثر شيئا فى روابط القرابة فان أثرها فيما هو أعظم وأدوم وأهم ــ فى الحب ــ أثر عظيم .

ــ وماتت زوج ابنى رأفت ومات هو كما قصصت عليك ، وظلت « انجساس » معى ومع ابنتى فى البيت بعد ان وظف ولداى الصغيران فى الجيش والادارة فتركا العاصمة الى حيث كان يؤمران بالمسير فى سائر انحاء القطر . لم يبق فى البيت الا أنا والا هى وزوجها

وأولادها والا ابنتى الوحيدة التى كانت لها بمثابة الأخت . وكانت صديقاتى كثيرا ما يزرننى فكانت ترحب بهن وتجلس معهن ، فما أسرع ما أصبحت صديقة لهن أيضا يحببنها كحبهن اياى ، ويأنسن بمجلسها كأنسهن بمجلسى . وهى وان كانت لا تتقن العربية أصلا فانها سرعان ما تعلمتها وأصبحت تتفاهم بها فى يسر ، بل سرعان ما أتقنتها كتابة وقراءة اتقانا ان قل فليس يقل كثيرا عن اتقانها التركية لغتها .

ـ لست أقص عليك يا ابنتى ما قاسته «انجساس» من أولادها ، فهذا تاريخ جديد تعلمينه حق العلم ، وانما أقص عليك حديثا قديما عنها لتعرفى الى أى حد وصل بها نبل الاحساس ، والى أى حد كانت كريمة الأخلاق ، قوية الاحساس بعزة نفسها وكرامتها.

ـ كان ابنى يعمل أحيانا فى البورصة فيضارب على الأموال والأقطان ، وكان بحكم عمله هذا كثير الاتصال بالأجانب الأغنياء من نزلاء القطر ، فهذا عملهم المستحب الذى انفردوا به ، فعرفوا كيف يسيطرون على أسواق البلد التجارية ، وكيف يستنزفون أموالها استنزافا . وكانت كثرة هؤلاء من اليهود ، فهم ـ كما تعلمين ـ أهل تجارة ومال منذ وجدوا فى التاريخ . وكان هؤلاء اليهود كثيرا مايزوروننا وكثيرا ما يزورهم ، وكثيرا ما يولم لهم ويولمون له . وكانت لأحد هؤلاء اليهود ابنة شابة جميلة خليعة ، كثيرة التظرف والتقرب من الرجال ، شأن كثيرات من أمثالها. والخلاعة والتظرف هما السلاح الذى لايستطيع الرجل أن يقاومه فى حينه وان قاومه بعد . فكان ان تسلطت على ابنى تسلطا يبيح لها أن تقبل هداياه

وما ينفق عليهـــا من مال .

ـ وشاع خبر تلك الصلة فى أوساط الرجال ، فجاء الى ابنى اكثر من صديق ونصحوه بأن يبتعد عن تلك اليهوديه ، فاليهود قوم يسعون وراء المـال فى كل آن وفى كل مكان . وصحبة هـذه اليهودية لن تـكلفه ما ينفق عليهـا من مال فحسب ، بل ستفتح عليه أبوابا اخرى لاستنزاف المـال ، لن يستطيع هو ان يسدها ، وهو الذى يعرف للأخلاق وزنا وللعواطف قدرا .

ـ وكنت أسمع أخبـار هـذه اليهودية ، فأخفيهـا عن « انجســاس » اخفـاء ، حتى لا تعرف فتتألم . وكان ولدى ، والحق يقال ، يحس إنه مندفع فى تيـار لا يليق به ولا بزوجه التى يحبها ويقــدس مكانتها . فـكان يتظرف لزوجه ، ويغدق عليهـا كثيرا جدا من حبـه ومن احترامه ، حتى لا تحس تغيرأ فى معاملته لها . كان يسرف أحيـانا فى احترامها ، وينفــذ لها رغائب ما كان ينفذها لها من قبل . وكان يشعرها بحبه لها اشـعارا لم يحاوله من قبـل . وكانت هى تقبـل منه هـذا الاحترام والحب الزائدين عما ألفت منه بفرح ظاهر ورضا عظيم .

ـ وكنت أشفق عليها كثيرا حين كانت تجيئنا تلك اليهودية مدعوة مع أبيها أو أمها ، فتستقبلهما استقبالا حسنا لائقا بمقام صـــديق الزوج . وكانت تودعهما كما استقبلتهما بالحفاوة والاكرام. فكنت أسر فى نفسى : آه لو عرفت من أمرها ما تجهلين لرددت اليها الاساءة باســاءة على الأقل .

ـ وكنت أخلو بولدى ، فأحاول أن أرجعه ، فـكان

يقول لى دائما ، بل كان أول ما يبدأ به قوله : « أشعرت « انجساس » بشيء ؟ » فأطمئنه ، ولكنى أعود فأحذره قائلة : انها ان لم تشعر اليوم فستشعر غدا ، فماذا يكون موقفك منها ؟.. وهنا كان يصفر وجهه ويتألم . هنا كان يعد بأنه سيقطع كل صلة تربطه بتلك اليهودية فى فرصة سانحة . هنا كان يكاد يبكى ، وهو يستحلفنى أن أخفى الأمر على « انجساس » حتى لا تألم ، فان ألمها كان آخر ما يستطيع أن يتحمل .

ـ ومرت الأيام واذا زوج يتقدم لتلك اليهودية . فينتهز ولدى هذه الفرصة ليقطع صلته بها ، فيدعوها هى وأباها وأمها الى وليمة ، بمناسبة زواجها ليقدم لها هدية ثمينة ، هى كل ما كانت تطمع فيه تلك اليهودية من صحبته .

ـ وما ان جاء يوم الوليمة حتى حادثته فى أمر اليهودية ، ورجوته أن يعدنى أن تكون هذه آخر زياراتها لبيتنا . وأن تكون هذه آخر مرة يتصل بها أو بأبيها أى اتصال ، ووعدنى ابنى بهذا ، فكدت أبكى من الفرح ، واذا أنا أخرج من غرفته فاذا « انجساس » داخلة اليه تحمل ملابسه لتساعده على لبسها ، وما أن رأتنى مضطربة من فرحى حتى سألتنى : « ما بك يا أماه ؟ » .

ـ قلت : لا شيء يا ابنتى . قالت : « كلا ، انك مضطربة وأخشى أن يكون ابنك سبب هذا الاضطراب ، افهمينى ما بك فانا معشر النساء أليق بأن نفهم بعضنا بعضا » . قلت مؤكدة : لا شيء يا ابنتى . قالت وكأنما قد صعب عليها أن أكتمها شيئا وهى التى لم تخف على شيئا قط ، بل لم تتعود منى كتمانا .

قالت : « أماه ! ان كنت تظنين انى لا أعرف من الأمر شيئا فأنت خاطئة » . قلت وقد أحسست انها تقصد بالأمر نفس هذا الذى كنت أخفيه عليها : وأى أمر ؟ .. قالت : « أمر الفتاة اليهودية » . قلت : وماذا تعرفين عنها ؟.. قالت : « كل شىء » . قلت وأنا أحاول آخر محاولة فى يأس لأخفى عليها الحقيقة : وهل هناك شىء مهم خاف عن هذه اليهودية ؟ مالها ، فتاة عادية كغيرها من الفتيات اليهوديات والانجليزيات اللواتى يزرن بيتنا مع آبائهن وأمهاتهن . قالت فى تأثر عميق : « أمى ! لا تحاولى أن تخفى على ما أعرف ، بدل أن تحاولى مساعدتى على احتمال ألمى الخفى. انى أعرف صلة زوجى بهذه اليهودية . انى أعرف كل شىء» . قلت : ومن أدراك ؟.. وكيف استطعت أن تظلى هكذا ، وكأنك جاهلة كل شىء ؟ ..

قالت : « حفظا لكرامتى سكت وتألمت وحدى . كنت بين أمرين : اما أن أحتمل فى كتمان كما فعلت ، واما أن أعلن معرفتى الأمر ، فان أعلنت معرفتى فلا بقاء لى ثانية واحدة بين زوجى وأولادى . لن أستطيع يا أمى أن أمكث مع زوجى يوما واحدا والناس تعرف انى أعرف انه لا يحبنى أو انه يخوننى . لا يا أمى ، ان كرامتى قبل كل شىء ، قبل نفسى ، وقبل أولادى ، ان أولادى يجب أن يكونوا كراما فلا ينبغى أن يرضوا لأمهم الا الكرامة . وما كنت أخفى الأمر وأتحمل فى صمت لولا انى قدرت الأمر تماما ووجدت ان كرامتى لا تمس فيه . كان أمامى زوجى ، رجل أحببته وأحبنى ، بل ما زال يحبنى حقا ، ويحاول أن يسترضينى ، رجل لم يهنى يوما بكلمة واحدة بله

بعمل ، وهو يحاول بكل الوسائل أن يخفى على الأمر الذى يشعر انه يمس كرامتى ، قلت فى نفسى لعلها غلطة ومن ذا الذى لا يغلط من بنى الانسان ، لعلها هفوة تورط فيها فى ظروف قاسية ، لن أقف فى سبيله الذى يريد أن يصالح به هفوته . كنت أشعر بندمه منذ أول يوم أتصل بتلك اليهودية ، كنت أحس هذا الاحترام وذاك الحب اللذين لم أعهدهما منه بهذه الوفرة ، كنت أحس انه فى أزمة نفسية وانه يحارب نفسه من أجلى ، فلم يكن أمامى الا أن أساعده على هذه الحرب . فتجاهلت الأمر أمام كل انسان الا أمام نفسى . لكن تأكدى يا أماه انى لو شعرت لحظة واحدة انه يهيننى أو انه يحب أحدا غيرى ، أو ان حبه لى قد نقص ، تأكدى ، انى لو لاحظت عليه أى تغير فى معاملته لى ، ولو لم أشعر حقا انه يجاهد نفسه جهادا شاقا من أجلى أنا ، وانه يشعر بالندم على عمله ولكن لا يمكنه لأنه ورط نفسه أمام الناس ، لولا هذا لكان بقائى معه تحت سقف واحد مستحيلا . تأكدى انى كنت آخذ أولادى وأهيم بهم هاربة ان لم أستطع ذلك مطلقة . كنت أفضل أن أحتمل آلام الفرقة من أبنائى ولا أحتمل آلام الشعور بالكرامة المجروحة ، وآلام الشعور بما سيحسه أبنائى نحوى يوم يكبرون ويعرفون ان أمهم فضلت شيئا مهما جل على كرامتها . احتملت آلام الغيرة التى تحسها كل امرأة ، والتى يحسها كل رجل يشعر ان أحدا يشاركه عواطف من يحب ، واحتملت آلام التفرد بالألم ، ومحاولات اخفاء الألم طوال سنة كاملة لا لشىء الا لأنى كنت أشعر ان زوجى اذا ما جلس الى كان يستعطفنى بكل

نظرة من نظراته وكل حركة من حركاته أن أساعده على أزمة نفسية . كان كل شيء فيه وكل شيء يأتيه كأنما يناديني : ساعديني فاني سأتغلب على نفسي من أجلك أنت . كنت اذا قال لي انه يحبني حبا لم يحبه ولن يحبه أحدا في حياته ، كنت اذا ما ردد هذه الجملة ، وكثيرا ما رددها في السنة الاخيرة ، أشعر انه يكررها محاولا أن يقنع بها نفسه هو قبل أن يقنعني أنا .

أما اليوم وقد واتته فرصة لأن يقطع صلته بها ، فتأكدي اني لن أسامحه بعدها ان لم يقطعها ، ولكن ثقي أيضا اني لن أهدده بهذا ولن أعلنه بما عزمت عليه ، فأنت وهو أدرى بخلقي .

ـ استمعت اليها يا ابنتي وأنا في دنيا أخرى مما كنت أحس به من مختلف الاحساسات ، فمن عطف الى اعجاب الى حب الى حنو . وأخيرا خرجت من هذه الاحساسات باحساس واحد هو اني أستمع لسيدة نبيلة حقا . سيدة كريمة النفس أبية تضحي في سبيل زوجها بكل شيء الا بكرامتها . سيدة لا كسنيدات اليوم اللواتي لا يضحين في سبيل أزواجهن الا بكرامتهن .

منذ ذلك اليوم يا ابنتي اختفت اليهودية من حياتنا اختفاء تاما ، جاءت هذا اليوم الى الوليمة وقدمت لها « انجساس » هديتها ، أو ثمن الساعات التي تقاضت ثمنها من ابني مرات ومرات ، ثم خرجت من بيتنا ضيفة مودعة بالاكرام والاحترام ، ولم تعد منذ ذلك اليوم لا الى بيتنا ولا الى مجالس ابني ، اختفت من حياتنا تماما ولم يعلم ابني ان زوجه « انجساس »

احست من الأمر شيئا . سحابة مرت فى حياتنا كان هو أسعد منا بزوالها ، سحابة خرجت منها « انجساس » موفورة الكرامة عزيزة النفس . سحابة ما أخطرها على الحياة الزوجية ، وما أقل ما تخرج منها هذه الحياة سليمة أو كالسليمة .

ـ وسكتت جدتى قليلا ثم قالت : ان ذكرت « انجساس » جدتك يا ابنتى فلا تذكريها الا بشدة احساسها بالكرامة وعزة النفس .

قلت : جدتى ، كنت أذكرها دائما الى اليوم بذكرى جميلة غير هذه ، كنت أذكرها بقصة ما زلت أسمعها من أمى منذ كنت طفلة ، فقد قالت لى أمى انه لما اشتدت بها الآلام يوم ولادتى خرجت « انجساس » جدتى الى الشرفة فى مطلع الفجر ودعت ربها قائلة : « الهى افتد ابنتى بى ، ونجها من هذا العذاب » .

وكان أن ولدت وسميت اسما اختارته لى جدتى « انجساس » وبعد ولادتى بأربعين يوما توفيت جدتى ، لأن دعاءها فجرا لم يخطىء ، بل أسرع طريقه نحو السماء .

* * *

هـذه القصص كتبت فى فتـرات مختلفة ولـكنها قريبـة من الفترة التى ألفت فيها أحاديث جدتى . انها مثلها تعكس مواقف وأحوالا نفسية متماثلة لأنها تمثل مرحلة من عمرى ومن عمر مصر لها سماتها الخاصـة وخصائصها المعروفة .

رأيت أن أنشرها مع أحاديث جدتى ، لأن المجلات التى نشرت بها كلها توقفت عن الصدور منذ ربع قرن أو أكثر . وأصبحت هذه القصص ضائعة بالفعل لأنى لا أحتفظ بأصول لها . انى دائما أحب أن أنشر جديدا ولـكن القديم له أيضا الحق فى أن يقرأ من قراء جدد.

وهـذه القصص لو أتيح لى أن أنقـدها لأخرجتها خارج مقاييس كثيرة استحدثت فى حيـاتنا الأدبيـة وأصبحت هى الوريثة الشرعية لمقاييس عاشت فى وقت كتبت فيهـا هـذه القصص . ولـكن الأدب فيما نعلم جميعا يحمل سماة عصره وفى الوقت نفسه يحمل بذور ما يجعله أدبا فى كل عصر .

انى أضع هذه القصص بين يدى القارىء وكل ما أرجوه لها أن تفتح له بابا من أبواب التفكير أو طريقا من طرق الدرس . وهـذا حسبى .

سـهير القلمـاوى

يونيو ١٩٧٨

مثلت فأتقنت التمثيل

لقد ألفت البكاء بعد فقــد وحيــدها واستبدلت بالرقص والتنهدات وبالغناء النحيب . كانت تعمــل فى مسرح من المسارح راقصة ومغنية ، فأصبحت تعمل فى مسرح الحياة نائحة وباكية .

فى ســنة ١٧٧٦ ، قامت أمريكا تطالب باســتقلالها وأعوزتها الجيوش فأرسلت تستنجد بفرنسا فأرسلت فرنسا المدد اليهــا بقيــادة القــائد « لافاييت » ذلك العظيم الذىأصبح فيما بعد من زعماء الثورة الفرنسية. ونالت أمريكا استقلالها وظلت مساعدة فرنسا لها دينا فى عنقــها تترقب الفرص للوفاء به . ولــكن الأعوام توالت وما زال هذا الدين غلا فى عنق أمريكا .

وفى ســنة ١٩١٤ ، انفجرت الحرب العظمى فى أنحاء أوربا وقامت لها الدول وقعدت . وأخيرا أرسلت فرنسا تطــالب بدينها وتلح فى طلب المــدد . تذكرت أمريكا « لافاييت » وجيشه فأرسلت جيشها وفاء دين وتحية اجلال لروح البطل الخالد .

وشاعت الأنشودة المعروفة « جئنا اليك يالافاييت » في أمريكا بين صفوف الجند وفى المســارح والمقاهى ٠

أنشدها القـــوم لحث الشباب على التطوع فى الجيش المرسل مددا لروح « لافاييت » ممثلة فى فرنسا ، ولكم ألهبت تلك الأنشودة من قلوب ، ولـكم أثارت من حمية الشباب ودفعت بهم زرافات الى صـــفوف الجيش المسافر الى وطن « لافاييت » وفاء دين ورد جميل .

وشهرت تلك الأم بانشاد هـذه الأنشودة واشتهر وحيـدها بأنه أول من تطوع فى هـذا الجيش . كانت الأم تغنى تلك الأنشودة وهى ترقص رقصـــة الجندى المقتول — رقصة تمثل وقوع الجندى الباسل فى ميدان القتال فداء للوطن وضحية للنصر — فكانت تلهب قلوب المتفرجين حماســا واقداما . وأنشدتها الآخر مرة ليلة رحيـل الجيش فى المعسكر ، وكان ابنهـــا من أكبـــر المعجبين بها ، والمتحمسين لها . وكانت هـذه آخر مرة رأت وحيـدها . ففى الصبـاح رحل الجيش .

رجع الجيش ولـكن وحيـدها لم يرجع . فقد قتل فى ميـدان الحرب شـهيدا كما أملت عليه تلك الروح التى ألهبتها الأم بأنشودتها . لم يمت فى ساحة الوطن وانما قتـــل فى ســاحة الوفاء .

وأنشد الجند « وجئنا اليك يا لافاييت » ، احتفاء برجوعهم الى وطنهم فتقطعت نيـــاط قلب الأم حزنا وكمدا ، وتمثلت لها الحرب بأبشع مظاهرها . فهزأت من الجند الساذج الذى يسير الى الموت فرحا مستبسلا مضللا بكلمات جوفاء ، كالوطن ، والحرية ، والوفاء ، والشهامة . وازدرت أناشيـد الحرب وأعلام الحرب ، وكل ما يمس الحرب ، لأنها كلها ليست الا وســائل اغراء الشباب ليقدم على الموت فتنال الأمة مطامعها .
وهكذا لابد من ضحايا فى كل فوز ولابد من ثمن لكل نصر .

وبزغت شمس هذا الصباح فتململت الأم فى فراشها ، وانحدر الدمع على صدرها سخينا ملتهبا فتنهدت قائلة : « رباه ، أما فى دنياك من جديد ؟.. » ليس هناك جديد لك أيتها الثكلى ، فقد حرمت ثمار غرس تعهدته وسهرت عليه فجنى الموت ما كنت اليه تتطلعين ، وتمتع الفناء بزهر تعهدته وسقيته دم القلب . ليس لك سوى انشودة تعيدينها ليل نهار هى كل ما لك من ذكرى . نعم ليس هنالك سوى أنشودة الذكرى فردديها كلما غنت الطيور ، ورددیها مطلع الشمس ومغربها ، رددیها ما بقى فيك صوت ينشد ، رددیها ، ولتكن آخر ما يسمع من صوتك العذب الرقيق .

صحت الأم فى ذلك اليوم يملؤها شعور خفى ، انها ستلاقى وحيدها ولكن أين ؟.. لاتدرى ، لقد دعاها الجند اليوم وتوسلوا اليها لتحضر احتفالهم بمرور عام على وفاة وحيدها . ذهبت ولكنها كانت ذاهلة عن كل ما حولها . يكلمها هذا ويعزيها ذاك ، فلا تشعر بشىء الا انها ستلاقى وحيدها اليوم .

وعزفت الموسيقى أنشودة «جئنا اليك يا لافاييت» فاندفعت الأم نحو المنبر بشعور غريب ، وبدأت تغنى وترقص رقصة الجندى المقتول ، كما كانت ترقصها ليلة ترحيل الجيش ، أنصت الجند اليها بقلوب باكية، وعيون ينهمر الدمع منها انهمارا . لقد رأى كل منهم الموت بعينه فما بكى ، ورأى أصدقاءه يترنحون قتلى فى ساحة الحرب فما ذرفت العين نصف ما ذرفت لمنظر تلك الأم الثكلى ترقص رقصة تمثل وحيدها يقع قتيلا فى الحرب . سمعوا المدافع والطبول

وسمعوا الأنين وحشرجة الموت فما هلعت قلوبهم ، ولا وجلت مثلما وجلت لسماع صوت الأم وهى تنشد انشودة دفعت ثمنها غاليا .

وترنحت الأم فى رقصتها استعدادا لسقطة الموت الأخيرة ــ سقطة تمثل سقطة الجندى الباسل مقتولا فى ساحة الحرب . وهنا رأت وحيدها . نعم رأته يسير اليها بطيئا مهيبا . يسير اليها هى بعد أن قام من بين صفوف الجند مادا ذراعيه نحوها . فصرخت صرخة مروعة : « ولدى ... ولدى ... الى يا ولدى»

وسقطت كما يسقط الجندى المقتول فى ساحة الحرب .

نوبية تعبر النهر

« نوبيـــة » صبيـــة فى العاشرة من عمرها . تلك السن التى لا هى طفولة فيهـا البراءة والسذاجة ، ولا هى شبـاب فيه الحيوية والاكتمال . وكانت ســمراء شــديدة السمرة . لولا عينـاها ما راعك شىء من ملامحها العــادية التى كانت أقرب الى القبح منهـا الى الجمال . ولـكن هاتين العينين وخضرتهما المعكوســة على سمرتها الشــديدة وبريقهما الخاطف اللامع كانتا قوة ترغمك على معاودة النظر الى وجهها .

وكانت « نوبيـة » تعمـــل مع أمهـــا فى بيت ثرى من أثرياء الصعيـــد ، خادما تقضى الحاجات فى سرعة وخفـــة ونشـــاط . وكانت اذا وجدت مع أترابها من الفلاحات العاملات فى الغيط تباهت وتفاخرت بما تلبس من ثياب ، وبسائر ما تنعم به فى بيت صاحب الأرض . بل ربما جرها طموح الطفولة الى الادعاء ان ســيدة الدار ســوف تتخذها بنتا لها وســوف تأخذها الى مصر فى الشتاء ، ويمتد بها المجال ويتسع الى وصف ما ستجد فى مصر وما ستعطى فيهـــا . ولعل هـــذه الأحلام كانت تســـاورها حقا . ولـــكن من الفلاحات لا تعرف ان زوج سيـــدها لها من البنات خمس .

كانت « لنوبية » أحلامها وآمالها وكأنما اطلاعها على الحياة المترفة التى كانت تراها كل يوم فى البيت الكبير ـ بيت صاحب الأرض ـ قد مد لها الآمال ووسع عليها الأحلام . ولولا طيبة عرفتها أترابها عنها كانت تتجلى فى اقتسامها بعض الحلوى معهن أو فى دعوتهن الى طعامها فى البيت الكبير ، لولا هذا لكرهنها ، وحسدنها ودبرن لها أمورا .

ولعل أشهر ما شهرت به «نوبية» حملها «الفانوس» فى ليالى رمضان لتمر به مع بنات القرية وصبيانها مغنين على أبواب الدور ممتازة طلبا لعادة رمضان ، كما كانوا يسمونها . وهى شىء من « النقل » أو الفطائر ، أو قطع صغيرة جدا من النقود لايظفرن بها الا من البيت الكبير نادرا . وكانت « نوبية » هى التى تقود الجماعة وهى التى تحمل هذا « الفانوس» الضخم الضعيف النور وهى تتلقى العطاء فتقسمه بالعدل بينهم جميعا لا تحابى الا نفسها من حين الى حين وكأنما كانت تبرر هذا بقولها : ولم لا يكون نصيبى الأكثر ، وأنا التى تحمل «الفانوس» وتقود الجماعة فى السير والغناء .

وفى آخر ليلة من ليالى رمضان منذ أعوام ، جاءت « نوبية » الى جماعتها بعد افطار الصيام وظلت تقص عليهم من أنباء البيت الكبير ما قصدت به الى اظهار فرحها وما قصدت به الى اغاظة أصحابها واشعال نار حسدهم . كان أهل البيت الكبير يعدون العدة لزيارة موتاهم أول يوم من أيام العيد . وهذا الاعداد يتطلب صنع الفطائر وشراء الفاكهة واعداد القطع الفضية اللامعة من النقود ، الى سائر ما اعتاد أن يوزعه الأغنياء على الفقراء فى مثل هذه المناسبات .

وأخذت « نوبية » تقص عليهم أنبــاء الفطائر واللحم والفاكهة والحلوى وقطع النقود اللامعة والأزهار ، وهم ينصتون اليها فى فرح واعظام لأمر ما تقص . ولكن واحــدا منهم دفعه الغيظ من هــذا الكلام وكأنما حســد « نوبية » على ما ترى وما ستنال مما تصف ، فقال لها : ولــكنك لن تعبرى النهر معهم ، غدا .

وكان أهل القرية يدفنون موتاهم على الشاطىء الآخر وكأنما عادة قدماء المصريين ظلت متبعة الى اليوم ، فما زال النهر العظيم يؤدى وظيفته فى فصل الأحيــاء عن الأموات .

وأغاظ « نوبية » اعتراض صاحبها وهاجت بها حمى التعاظم والتفاخر ، فردت ان سيدة الدار وعدتها ان تأخــذها معهم ، بل وعدتها أن تعطيها ما تشاء . وعادت « نوبية » الى الدار وتبينت للأسف الأليم انها لم تحصل على هــذا الوعد بعد . فأخــذت ترجو ســـيداتها الصغيرات أن يقنعن أمهن بأخــذها معهن ، فلم تفلح ســفارة واحدة منهن . فوسطت أمها ، فلم تفلح هى أيضا . فاندفعت بدافع الأمل الأخير الى سيدتها باكية مستحلفة ، متوســلة ، فنهرتها السيدة وهى مستمرة فى عملها المتراكم أمامها لا تدرى شيئا عما يغلى به صدر « نوبية » .

وانزوت « نوبية » فى ركن من أركان الدار الفسيحة باكية يائسة ، ولــكنها ما كادت تجلس مكانهــا وهى تدمدم : اريد أن أعبر النهر معكم ، فى عناد الطفولة ، وتصميمها حتى صرخت صرخة نــكراء ارتجت لهــا جنبات البيت ، فعدا نحوها كل من كان فى الدار كبيرا

كان أم صغيرا يسألها ما بها !.. فمدت يدها اليهم وهى تصرخ فى ألم أليم : « لسعة عقرب أسعفونى » .

* * *

تنفس فجر العيد متعبا كأنما قد أعياه السير فى قافلة الزمن ، وازاح طرف الستار فى ارتخاء عن يوم صحو ، رائق لم تشب زرقة سمائه سحابة واحده ، وهبت على النهر ريح ساخنة تحرك صفحته فى هدوء وتكاسل وخرج أطفال القرية فى جلابيبهم ذات الألوان الفاتحة الزاعقة يهللون ويصيحون ، وكأنما هم يعوضون العيد ما سلبته الطبيعة من حقهم فى البهجة والفرح، وسارت القوارب تعبر النهر متلاحقة مزدحمة كأنما هى تسابق مطلع الشمس الى زورة الموتى فى يوم العيد ، وكأنما أهلها يريدون أن يظفروا بشرف تمتعت به الشمس دونهم طوال عام ، وهى أول ما يطلع على مقابر هؤلاء الموتى يؤنس وحدتهم وينير ظلمتهم . وعلا صوت امرأة من قارب من هذه القوارب بصرخة الألم واعلان الحزن ، والتقت أنظار العابرين فوق قارب « صاحب الملك » يلهو به النهر ويداعبه على صفحته ، ثم نظر الناس بعضهم الى بعض نظرة المتألم المدرك للأمر ، فلم يمح آخر الليل ما قد خط أوله بعد .

وتعبت المرأة من صراخها فجلست فى قعر القارب تبكى بكاء مرا ، ثم قالت وكأنما الخاطر الجديد قد ألهاها عن حزنها شيئا : « وا كبدى يابنتى أردت أن تعبرى النهر معنا فهأنت قد عبرته » . ثم نظرت الى حيث جسد ابنتها وعادت الى عويلها العالى الحزين .

لم لاترقص ..؟

جلسنا بعد العشاء صامتين .. كل يفكر فى عالمه البعيد الذى لايرتبط بعالم من يجلس الى جانبه بأوهى سبب . فهذا أمريكى ، وذاك انجليزى ، وثالث فرنسى . لكل منا ماضيه الحافل بالذكريات ، ومستقبله الملىء بالآمال والأمنيات .

قالت ربة الدار : أليس عند أحدكم مشروع لقضاء سهرة ؟ .. فكان الجواب صمتا ووجوما .

قالت : هيا اعملوا شيئا ، اذهبوا الى المسرح ، الى السينما ، أو فكروا فى قضاء سهرة فى لمنزل اذا أردتم . كان الفرنسى بملابس الضباط الرسمية ، لأنه رجع من حفلة زواج عصرا ، ولم يغير ملابسه للعشاء .

فقال : هيا نرقص .. قال الكل : هيا نرقص ،

وأزيحت السجاد ، ودارت « الاسطوانات » ، وبدأ الرقص . ووقف الأمريكى بجانبى يتابع الرقص بنظره ولا يتقدم لراقصة يطلبها للرقص . وكان موقفه يبعث على التساؤل والعجب.. فقامت ربة الدار اليه وقالت : ألا ترقص ؟.. نحن محتاجون اليك ، لأن الراقصات أكثر من الراقصين .. قال : كلا ، قالت : أما يكفى انه

ينقصنا راقصون ؟.. قال : لا أريد أن أرقص .. واستمر واقفا مكانه .

وأفاض القوم فى الحديث عنه . انه عجيب الأطوار، لو كان لا يتقن الرقص لعذرناه .. قالت الانجليزية : لقد راقصنى مرة يوم دعانى الى حفلة السفارة الأمريكية ، وكان يرقص رقصا مدهشا .. قالت ربة الدار : راقصك بضع دقائق لأداء الواجب فقط ، كما قلت لى ، قالت : نعم . ثم لم يرقص بعدها حتى الصباح . قالت له ربة الدار : لابد أن أعرف لم لا ترقص ؟ .. قال : لا شىء كل ما فى الأمر انى لا أريد .

وما كاد الكلام يدور حول موضوع آخر ، حتى مد يده مسلما منسحبا لينام . « ولكنها التاسعة ليس الا » . قال : « أريد أن أنام » .

تذكرت بعد دقائق رسالة تليفونية لابد لى من أدائها وكانت الآلة بجوار باب غرفته . وما كدت أدير آخر رقم حتى سمعت أنة خافتة ، ترى ما به ؟.. لا حق لى أن أقتحم عليه غرفته ، ولكن أكان الصوت صوته ؟.. ماذا نفعل؟.. رجعت فاذا ربة الدار ترجونى ان أحمل اليه كأسا من عصير البرتقال انها مشغولة فى تقديم الكئوس للآخرين . كدت أعتذر ، ولكنى حملت الكأس وسرت ، وفى الطريق وقفت . اذ كان يتألم حقا ، فما دخولى عليه غرفته وأنا لم أدخلها قط . ولكن كيف أعود ، واذا عدت ، ألا تحمل اليه الكأس ربة الدار ، فاذا كان يتألم حقا فأى ارهاق سترهقه بكثرة سؤالها والحاحها . لقد كدت أصرخ فى وجهها ان دعيه وهى تلح عليه فى السؤال منذ دقائق وهو محمر الوجه زائغ البصر .

وسمعت حركة أقدام ، فأسرعت وقرعت الباب ، وانتظرت رده . وكانت ربة الدار ، فقالت : من آخر الدهليز ، ألم يجبك بعد ؟.. خفت أن تأتى هى ، لست أدرى لم ، لذلك شعرت انى انقذت لما سمعت صوته يأذن بالدخول . فتحت الباب ، وقلت له : هاك كأسا من البرتقال . وكاد يقول : لا أريد .. ولكنه قام ليأخذ الكأس . لقد كان أحمر العينين من البكاء . وبدافع الشفقة على الغريب المتألم ، قلت له : تشجع . فنظر الى نظرة حيوان خائف مرتاب يريد أن يفهم . ومد يده ليأخذ الكأس ، وكنت ما زلت على عتبة الباب ، فتركتها له ، وهممت بالرجوع ، فاذا الكأس تسقط بين أيدينا ، واذا هو يجذبنى من ذراعى ويقفل الباب ، قائلا : أرجوك لا تحدثى صوتا لئلا تجىء وترهقنى بالسؤال . وعرفت من يقصد ، ولكنى هممت أن أفتح الباب وأتركه يتصرف كيف شاء ، فقال : أرجوك . فوقفت .

كان يلهث مترقبا ، وتحسست له الأصوات فلم يكن الا الأنغام الراقصة ، وضحك الراقصين ، قلت له : « اطمئن . لا شىء . لم يسمعوا شيئا » . قال : « أرجوك » . قلت : « ماذا ؟ » قال : « الموسيقى أوقفيها ، انها تكاد تذهب بعقلى » . قلت : «تجلد . أتظن انى مستطيعة هذا ، وهبنى أوقفتها ، أتريد وابلا من السؤال فى مقابلها » . لم يدعنى أكمل جملتى حتى ارتمى على مكتبه يبكى . لم أدر ماذا أفعل ؟ .. أأتركه على تلك الحال وأتجاهل حزنه الفائر ؟.. كلا ، لا أستطيع أن أتكلف هذا البرود . انه غريب يتألم فنسيت تحفظى ، وقلت له : مالك . وفى لحظة الصمت

أدركت انى لم يكن لى أن أسأله هـذا السؤال ما شأنى به . وطافت برأسى سريعا جملا تمحو اثر هذا السؤال حتى لايضطر الى الرد . ولـكنها كانت كلها تشعر بالبرود وعدم الاكتراث . فلم أقو على نطقها وسـط هـذا التألم الحزين . لم يدعنى أفكر طويلا ، فقـد رفع رأسـه وقال : « آه لو كنت أنساها » . قلت : « وما يمنعك ؟ شىء من قوة الارادة وانسها » . قال : « انك لا تعرفين شـيئا . انها ماتت » . قلت : « ولـكنك لم تمتها » . قال : « لا . لا . ماتت لأنها كانت تحبنى » . لقد مانع أهلى فى زواجنا . آه ، كم أمقتهم لهذا . كم أمقتهم السخفاء . انها ليست من طبقتى ، كلا . هـذا عذر انتحلوه . انهم كانوا يريدون لى أخرى . فقلت لها : صبرا ، سأذهب فى عمـل لمدة عامين ، وأعود لك معتمدا على نفسى فى معاشى ، فان قبلوا الزواج فبها ، والا فسنتزوج رغم ارادتهم ونعيش بما أكسب . فقبلت .. وقبل أن أسافر رجتنى ألا أراقص غيرها ، الا اذا اضطررت لأداء واجب ، لأنى عرفتها فى مرقص . فوعدتها . ولا زلت الى اليوم وفيا لهذا الوعد . لا أسمع أنغام رقص الا ذكرتها . ولا أخلو لنفسى الا طافت برأسى كل حوادث رجعتى وأنا مشوق الى رؤيتها ، فاذا بها قد ماتت قبل أن أعود بأيام . ان محادثاتنا ترن فى أذنى دائما كأنما قد تعمـدت أن أحفظها عن ظهر قلب . بل ما أكثر ما أتخيلها أمامى فأجلس اليها أتحدث فى شئونى وأسمعها وهى تملى على ما يجب أن أعمل . لقد فررت من القـارة كلهـا وعبرت المحيط وجئت هنا فى هذه المدينة المليئة بأسباب الفرح لا لأنساها ولـكن لأنسى اساءة أهـلى الى .

ولأحاول أن أغفر لهم ولـكنى لم أستطع . آه يارب ألم تـكن تستطيع ابقـــاءها أياما حتى أعود لأراها وأمحو أسباب حزنها وضعفها » .

واندفع فى حزنه الأليم يسخط على القـــدر والزمن والحياة دون حرج دينى ، بل دون أى ايمان . أشفقت عليه وقلت له : « مهلا .. لعل وراء كل تعاســتك تلك حكمة لا تفهمها » . قال : « حكمة . أنا لا أومن بشىء بعدها . لو كنت أومن بالآخرة لانتحرت لألقاها أو لأسمع أخبـــارها ، ولـكنى لا أومن بشىء مطلقـا مطلقـــا » .

قلت : « تشـجع .. الا تتصـــور ان هناك من هم أتعس منك » . قال : « مستحيل » . قلت : « تصور ان حبيبتك عاشت ثم ارتـكبت ما احتقرتها من أجله » . قال : « كنت أقتلهــا » . قلت : « تصور انك جبنت عن قتلهــا لا خوفا وانما احتقــارا واشمئزازا . تصور انك أحببتها ورفعتهــا فى حبـك الى السماء ، فاذا هى تنزل من عليـاء ما رفعتهــا اليه يوما بعـد يوم ، واذا أنت تفيق يوما فتجدها لا تستحق شيئا بعد أن كنت لا تجد ما يستحق أن يداس بقدمها . تصور انك بنيت من حبـك لهــا تمثالا تضـــيف اليه كل يوم آية من الجلال والجمال حتى انك لم تتمالك من ان تركع له متعبدا فاذا التمثال يسقط امام عينيك قطعة قطعـــة حتى ينهــار كله ولا تبقى الا قاعدته . وبالتها تنهـــار هى أيضــا ، بل يا ليتك تستطيع كسرها أو محوها ، انها ثابتة لا تتزعزع . باقية حيث هى تذكرك دائما أن تمثالا كان عليها يوما ما وانك كنت تركع له متعبدا » .

« تصـــور انك بدل أن تذكرها فى جمـــال الذكرى

الطاهرة والحب الذى لم يدنس بشائبة ولم يمسه الا الموت ، الذى لا سلطان لمخلوق عليه ، تصور انك كنت تذكرها وتذكر انها ماتت فى الحياة ، انها تحطمت امامك وانتهت ولم يعد لك فيها حتى أمل فى الآخرة التى يؤمن بها كل مؤمن حولك . تصور انك كنت تذكر مشاقك فى رفعها عن حياتها الأولى . كيف سقطت قليلا لتعينها على الارتفاع فوق حياة لعنتها معك فاذا هى تجذبك الى ما أردت أن تنقذها منه ، واذا هى تسقط لا حيث كانت ، ولكن الى أحط من ذلك بكثير ولا يسعك ولا يسع كبرياؤك الا أن تقول لها هنيئا لك ما اخترت لنفسك . ثم تسير فى الحياة وقاعدة التمثال لا تزال هناك ثقيلة على القلب تذكرك دائما ان تمثالا كان عليها يوما ما ، وانك كنت تركع له متعبدا . ويفيض حزنك فلا تملك نفسك أحيانا من أن تركع حيث كنت تركع دائما ، ثم ترفع عينيك نحو التمثال فاذا الفراغ الذى لا يتبعه الا الفراغ وتعثر يدك فى تراب التمثال المنهار فتمسكه بين يديك وتضغط عليه لعل شيئا من حرارة الحياة فيك تعيد اليه تماسكه ، ولكنه ينهار دائما ابدا بين يديك متساقطا فى خور وضعف نحو الأرض التى كان منها . كأن الحياة التى شععتها فيه لا يمكن أن تصل اليه . وتذكر انك خدعت يوما بمثل هذا التراب الحقير فتنثره فى عنف وتمسح يدك من اثره مشمئزا ، ولكن دمعك ينحدر بدله فى حذر وضعف وحزن ، دمعك الذى حسبته وكتبته كبرياء ينزل متهاديا محرقا على قاعدة التمثال التى تابى الا أن تبقى والا أن تذكرك بأن تمثالا كان عليها يوما ما وانك كنت تركع له متعبدا » .

« تصور انك لا تستطيع أن تفرج عن نفسك بالدمع لأن كبرياءك تثور دائما وتسائلك فى احتقـــار على أى شيء تبكى ، فتقول معهـــا : نعم ، على أى شيء تبكى ؟ فـــكر فى انك تملك دمعك ان تذرفه كريما أبيا لأنهـــا ماتت كما عهدتها ، لم تمس حبك بما يؤثر فى جمـــاله مهما تـــكن حالها . ثم اجعـــل هـــذه الذكرى متعـــة لا شقاء ، وسر بنورها فى الحياة كما لو كانت معك ، لأنها لم تـــكن ألا معك . واذا صـــادفت هؤلاء الذين تناثرت أحلامهم ودكت آمالهم وحطمت تماثيلهم وحاروا بين دمعهم وكبريائهم ، فســـاعدهم على أن يزيلوا هذه القواعد التى لا تزال أبدا تذكرهم ان تمثالا كان عليهـــا يوما ما ، وانهم كانوا يركعون له متعبدين » .

لقد جف دمعه وهو ينظر الى ، كأنما قد أدرك كل شيء ، وقمت مسلمة ، فمد يده وقال : « تشجعى » . فضحكت وقلت : « كلا يا صـــاحبى ليست تلك حالى وانما تلك حال صديقة أحبها أصدق حب وأقواه » . قال : « ما أشقاها » . قلت : « كلا انها لا تحدث أحدا بآلامها الاى . حتى أن النـــــــــاس يقولون ما أسعدها . انها مؤمنة . انها تسير فى الحياة وابتسامة الرضا تنير وجهها كأنما تقول لنفسها : « ان الله يريد بذلك أمرا ، بل انها تقولها فعلا فى هدوء وايمان » . قال : « ما أعجب الشرق ! » .

أنا الورد .

كان اليوم حارا حالما يمر بأهل الأرض مرور الذهول ، فهدء كل حى هدوءا راضيا لا أثر للمقاومة فيه ، وسكنت كل حركة كأنما الكل ينصت الى مرور هذه الساعات الثقال ، ويتحسس لها صوتا يخيل اليه انه سيسمعه ، وتلكأت الساعات بطيئة ساكنة ، كأنها لا تسير ، بل كأنها الجزيرة الحالمة وسط بحر الزمان المضطرب .

كنت أسير فى هذا الحر وحدى راجعة من عمل لم يكن شاقا الا لأنه أرغمنى على الخروج فى مثل هذا اليوم ، وطافت برأسى أفكار هادئة حزينة لم أعرف لها سببا ، كانت الصور والأفكار تمر برأسى مضطربة فى تراخ كأنها ألاعيب بين يدى طفل لا يعرف من أمرها أكثر من انه يلهو بها متبرما ، لا يريد الا أن ينام ، ولكنه لايدرك ماذا يريد .

وكانت الحديقة على جانبى الطريق زاهية الخضرة الا ان حشائشها مسترخية نائمة ، لأن الحر أضعفها وأنعسها ، وزهر الليمون ينفث عطره العبق القوى الذى تشعه الحرارة وتنشره تملأ به الجو مخدرا للأعصاب ناشرا فى الدنيا احساسات حالمة ذاهلة .

ومن بعيد انساب صوت البستانى الصغير من هذا الفضاء الى أذنى ، غريبا أولا ، ثم منسجما ثانيا :

« ياللى أنا الورد .. وانت الماء بتسقينى » .

صوت هادىء مطمئن يشجى لاطمئنانه وهدوئه . صوت فيه بحة ملائكية وامتدادة حالمة ، بنفم مستسلم هادىء ، وان يكن مطمئنا فانه لا يخلو من هذا الحزن الذى لا تفلت منه أفرح الأغانى الشرقية .

واقتربت بخطواتى المتثاقلة نحو الصبى وهو يعمل فى الحشيش ، يقلع ويسوى ، ويقص فى نشاط عجيب.

انه يستمد حياته من مصدر خفى ، كل ما حوله يئيم ويخدر الأعصاب ، ولكن ينبوعا صافيا من الفرح والرضا يترقرق فى صدره الفتى . ان فرحه يطرب لا بقوته ، ولكن باطمئنانه وغرابته وسط هذا النوم والركود . وكرر الصبى مواله ، وأخذ يعيد :

« ياللى أنا الورد .. وانت الماء بتسقينى » .

ويده تعمل فى حركة دائمة ، يده السمراء المصرية النحيفة التى لم تعرف البطالة منذ قرون وقرون . ما أعجب هذا الاطمئنان فى عالم يغلى بالقلق ! وما أجمل هذا الرضا وسط دنيا تضطرب بالسخط ! ان بستانى الصغير يحمل فى صدره سرا سماويا قد أودعه دون أن يشعر به . ان فيه نفحة من عل تنير له الظلام ، وتنعش له الموت . ان فيه قدرة تهدىء العواطف وتطمئن البحار المضطربة ليسير بمركبه الصغير كالجدول هادئا آمنا لا الى غاية معلومة ، ولكن ليسير أبدا .

ورفع الصبي عينيه الى ، وقد وقفت دون أن أشعر، مسمرة حيث أنا ، أنتظر أن يصيبني رذاذ من هذا الاطمئنان والرضا . لقد أيقظتني نظرته الى. أنه يظنني قد ضللت الطريق ، فهو يشير الى الطريق العام قائلا :

« من هنـــا ياست » .

واني لأسير وفي قلبي حسرة ، وفي نفسي انقباض ثقيل . ليته يدلني على هذا السر الذي في قلبه ، ولأضيع بعدها في الحياة المقفرة ما أضيع . الطريق العام . ليت كل ما ضللت عنه كان أمره كالطريق العام. آه كم كان يكون يسيرا اذ ذاك . آه كم تسهل الحياة وتشرق و . . . . .

« يالى أنا الورد .. وانت المـاء بتسقيني » .

عاد الصبي الى غنائه . اني مررت به كغمامة تمر بشمس الصيف ، لتتركها أسطع مما كانت ، ولينسى أمرها حتى من استظل بها دقائق أو ثوان .

ورفعت منديلي أمسح العرق المنساب على جبهتي ، اني عرقت من حر السير ، وبستاني الصغير يغني للتعب والحر ، وترتفع أغنيته في فضاء من حرارة الصيف وعبق زهر الليمون ، لتعود فتهب على وجهه نسيما رطبا منعشا ينشطه للعمل .

ثم طواني الطريق العام . فغرقت في ضوضاء آلاته ، وأحاديث أهله . ان لبستاني جنته وأغنيته . أما أنا فقد مزقت أوتار حنجرتي ، وأصبحت وكأنما قد خلقت لأعيش أبدا وسط هذه الآلات ، وتلك الدمى الآدمية ، أسمع أصوات الأولى فتؤذي الحواس ، وأنصت لحديث الأخرى فيعيا العقل ويشقى القلب .

خــــــلود ـ

عجيب أمرها « خلود » هذه . انها ظلت تغرى المثال لمسكين اغراء ملحا ، فلما أيقنت من قلبه تدللت وتجنت. انه لايزال يذكر أول يوم لاقاها فيه . كان فى مدينـــة نائية عن وطنه ، وكان يعد نفسه لامتحان السنة النهائية فى كلية الهندســـة ، وكان العمـــل قد أتعبه ، فخرج الى غابة قريبة من فندقه الذى كان يسكنه منذ أعوام وحيـــدا ، ليخفف شيئا من تعبه ، وليستعيد شيئا من نشاطه ليواصل الدرس ، وقد قرب موعد الامتحان. ولــكن « خلود » المــاكرة كانت فى الغابة . لأى سبب؟ لايدرى أحد . فلاحت له جميـــلة فتـــانة مرحـــة ، وجاءت تسليه عن تعبه ، وتمنيه بأشياء مبهمة معقدة ، ولــكنها كانت جميلة خلابة . انه لايزال يذكر كيف واعدته على اللقاء فى الغد ـ نعم فى الغد .. فقد كانت لا تســـتطيع عنه صـــبرا ـ فى نفس المــكان وفى نفس الساعة . انه لايزال يذكر كيف خف ثانى يوم للقائها بعد أن قضى ليلة صفراء ، لم يغمض له فيها جفن ، ولم يهدأ له اضطراب .

ولقد صـــدقت « خلود » وعدها ولاقته باسمة ، تشع الحياة من قدها ويفيض ماء الصـــبا من وجهها المشرق وعينيها البراقتين ، وفمها الضاحك الجميل ،

لقد مضى على هذا اللقاء أعوام وأعوام ، و « خلود » هى هى لم تسر دقيقة نحو الكبر . ولقد سألها فى هذا اليوم عن اسمها ، فلم يكن يعرفه بعد ، فلما قالت « خلود » : تعجب أشد العجب ، وقال : اسم شاذ عجيب . قالت : ولم ؟ قال : انه غيرمألوف. قالت : وما فائدة الاسم ان كان شائعا ؟ أليس يطلق الاسم ليميز صاحبه ؟ وكلما كان الاسم شاذا عجيبا كما تقول ، كان أمعن فى الدلالة على صاحبه . قال : انه اسم جميل على كل حال .

لقد ذهبت جهوده هباء هذا العام ، ولم يجسر على أن ينقدم للامتحان ، بل انه لم يمتحن الى اليوم . انه لم يعد يفكر الا فى « خلود » هذه .

آه . ما أمكرها . انها لما أيقنت من قلبه عبثت به. انه يعرف أين هى ، انه يعرف الطريق الموصل الى بيتها الذى لا تعجب هندسته حتى الطالب الصغير فى مدرسة الهندسة ، ولكنه أصبح يزور عن هذا الطريق اذا صادفه ويشيح بوجهه اذا رأى بيتها أمامه . ولكن هذا الازورار ، وما فيه من ألم ، لم يكن ليمنع المثال من أن يزور « خلود » من حين الى حين ، يحاول أن يبين لها خطأها فيما تسلكه من سلوك ، وسوء تصرفها فيما تأتى من أعمال .

قالت له « خلود » يوما : « أيها الحبيب ، لو تعرف نفسك . مالك وللهندسة ؟ انت لم تخلق لتصفف الطوب والحجر » .

قال : « ولكنى سأنطق الطوب والحجر » .

أى مسكين ! انه لم يدر كيف قال هذه الجملة التى

لم يـكن قد شعر بمعناها من قبل . وصاحت «خلود» فرحة منتصرة : « الآن بدأت تحس شيئا من نفسك . انت لابد أن تنطق الحجر . دع الاتجار والعمـــل ، واخلص بنفسك وروحك لانطـاق الحجر . حجر يقول شيئا يا للاعجاز . ألسنا نعبد الله لأنه خلق من الجماد حيـــــــاة ... » .

ولم تنته « خلود » من حديثها حتى أقسم المثــال معاهدا أن يهب نفسه وحيـــاته لمحاولة انطاق الحجر.

ولـكن ما أمكرها . انها لمـا أيقنت انه لن يستطيع أن يفلت من قسمه لعبت به وسخرت منه .

كم من مرة ذهبت اليهـــا وهو يحمل تمثالا قضى فى صنعه الأيام ، وأحيـــانا الأشهر الطوال سابحا فى عالم لذيذ وخيـــال جميـــل ، مقفلا على نفســـه حجرته الضيقة لا يـكاد يرى أحدا . كم نسى طعامه حتى أحس الدوار . كم نسى نومه حتى شحب واصفر لونه وخارت قواه .

وأخيرا حمـــل اليها التمثال ، ولـكنها ضـــحكت منه . فعلا ضحكت منه . وكانت ضحكتها رنانة طربة . وقالت له : « ياحبيبى .. ان هذا التمثال يضحكنى كسره بربك أو احفظه عندك ، فقد ينفع أن يـكون أى شىء آخر ، الا أن يـكون هـدية أقبلها منك لأضعهــا فى قصرى » .

لقد بلغت بها الجرأة أن تسمى هذا المنزل العجيب ، الذى لايرضى عن هندســـته حتى الطالب الصغير فى مدرســـة الهندســـة ، قصرا ! هـــذا المنزل الحقير قصر ! وقصر لا تستطيع أن تحتفظ فيه بمثل هـــذه

الآية الفنيـــة . لقد ظنت الغريرة انها ما دامت تملك بضعة من التماثيل التى مات أصحابها من زمن بعيـــد سحيق فان هـــذا يكفى لأن يسمى هذا المنزل العجيب قصرا ..

ولو فعلت « خلود » هـــذا واقتصرت عليه لاحتمل منها المثال هـــذا الغرور ، وهذا السخف ، ولـكنها المـاكرة لمـا أيقنت من قلبه وحيـــاته ، راحت تلعب به لعب الـــكرة .

فهذا مغفل عظيم ، يدخل منزلها حاملا تمثالا هو آية الفظاعة والنشوز فى الفن ، فتبتسم له وتقبـل هديته فى ظرف وتلطف . وهذا شاعر سخيف مجنون لايعرف من الشعر الا أن يظهر بهذا المظهر المزرى القـــذر ، يكتب لها قصيدة تضحك ، لبعدها عن كل ما له مساس بالشعر الحق من قريب أو بعيـــد ، فتبتسم له وتأخذ القصيـــدة فى رفق كأنما هى حجاب ســـــتضعه على قلبها ليقيها عين الحسود ، وهـــذا مغن يقضى نهـــاره باكيا مستبكيا يأتيها بنشيد للحرب كله بـكاء ورخاوة ، فتسمع لغنائه المـائع وتأخذ « الاسطوانة » منه لتضعها فوق « الفونوغراف » فى رقة محيرة . وهـــذا ممثل ، وهـــذا كاتب ، وهـــذا فيلسوف أيضا . كل هؤلاء المـأفونين المدعين المجانين يجالسونها وهى تبتسم فى وجوههم وتتظرف معهم . الا هـــذا المثال المسكين ، فانها لا تـكاد تحفل بأمره ما داموا هم معها . مع انها هى التى أغرته ، وهى التى ألحت عليه ، وهى التى من أجلها هجر الحياة التى يقبل عليها كل هؤلاء اقبـــالا مذلا حقيرا .

انها غادرة « خلود » هـــذه . انها لا ترتجع ، انها

لا تسمع النصح ، ولا تفيق لنفسها ، وكيف تفيق ما دامت تسكن هـذا المنزل العجيب الذى تصر على تسميته قصرا !.. وما دامت تلقى هذا الجيش الحقير من بطانتها !.. ألم ينبهها المثال الى هراء كل هؤلاء .

ألم يرها بنفسه ، وألم تر هى بنفسها كيف انه لا ينفضى يوم أو يومان على الأكثر فاذا التمثال الذى قبلته من هذا المثال الحقير تراب ، واذا القصيدة التى أعجبت بها قد انمحت سطورها ، ولم تبق الورقة الا بيضاء ناصعة البياض ، واذا الأغنية تدار على « الفونوغراف » وتدار فلا يسمع منها الا حفيف الابرة الدائرة .

ولكن « خلود » شريرة حقا . انها تضحك من كل هذا ولا تحزن ، لا لتفتت التمثال ولا لانمحاء القصيدة ولا لتلاشى الأغنية . ولماذا تحزن وكل يوم يأتيها جديد ؟ ولماذا تأسى وكل يوم يدخل فى قصرها الذى لايرضى عن هندسته حتى الطالب الصغير فى مدرسة الهندسة ، آلاف المثالين ، والشعراء ، والمغنين ، والممثلين ، والرسامين ، والكتاب ، والفلاسفة .. كل هؤلاء فتنوا بها ، كل هؤلاء يقدمون لها القرابين ، وهى تتقبل وتضحك وتبسم لتتقبل وتضحك وتبتسم من جديد .

ان المثال لن يطيق أكثر مما أطاق . انه ذاهب اليها بهذا التمثال هذه الليلة ، فان قبلته عاد يحاول اصلاح أمرها ، وان لم تقبله كسره على رأسها وعاد ، لن تراه ولن يراها . لقد جاوز الأمر أقصى حدوده .

وحمل تمثاله الأخير وسعى فى هذه الطريق التى كان

يزور عنها اذا صادفته ، ودخل هذا المنزل الحقير الذى كان يشيح عنه بوجهه اذا رآه . واذا « خلود » مضطجعة على كرسيها الطويل تتثاءب فى ملل أوتعب ، وحولها زهور ذابلة ، وأوراق محيت منها القصائد ، وقطع مكسرة من تماثيل بسمت فى وجه صانعيها ، وعلى « الفونوغراف » كانت تدار اسطوانة لا يسمع منها الا حفيف الابرة الدائرة . مسكينة « خلود » قد تكون عادت الى رشدها وعقلها . قد تكون فهمت أخيرا ان ما يقدم اليها كذب وهراء . هاهى ذى ترحب بمقدم المثال لأول مرة بعد أن سكنت هذا المنزل العجيب وبعد به العهد الذى كان يلقاها فيه فى الغابة هناك فى البلد النائى عن وطنه . قالت بصوتها الطروب : « ماذا تحمل الى ياحبيبى ؟ » . قال : « تمثالا انفقت فيه ما أنفقت من جهد ، وأذبت فيه من حياتى ما أذبت . انظرى يا « خلود » انه يكاد يقول شيئا » . قالت : « أرنى اياه » وكشف الغطاء ، فاذا تمثال « لخلود » رائع حقا . « خلود » كما رآها يوم قالت له : ان الأسماء الشاذة أمعن فى الدلالة على أصحابها ، انها حجرا تكاد تقول هذا . ولم تستطع أن تتكلف هذه المرة ، ولم تستطع أن تضحك منه ، وانما قالت له : « ما أغباك ياحبيبى » وحملق المثال قائلا : « ماذا تريدين ؟.. »

قالت : « ان تماثيلك كلها رائعة . ان هذا التمثال آية لو لم تقدم فى حياتك الى غيره لكفاك » .

ان « خلود » جميلة حقا . انها عادت الى رشدها . والمثال يرجو أن تقبل هديته وهو واثق من انها ستقبلها ويقول لها : « سترين كيف يبلى قصرك بما فيه ولا يبلى هذا التمثال . ستفيقين فى الغد ، لا على قطع مكسورة ،

ولـكن على تمثال يـكاد يحيا مثلك لولا أن صـانعه انسـان . »

ولـكن ، ماذا تقول « خلود » ؟.. انها عادت الى دلالها وتجنيها ، انها تقول : ولـكنها لا تسـتطيع أن تقبله الآن .

قال المثـال : « وماذا تعنين بهـذا ؟.. أين ومتى تريدين أن أقدمه لك لتقبليه ؟ » .

قالت « خلود » : « هناك اذا سرت فى الشـارع العام ، ثم سرت طويلا طويلا الى نهايته ، ستجد بعد التعب مقبرة الأموات . وهناك سأنتظرك لتقـدم الى التمثال » .

لعن الله ذوقك يا « خلود » . مقبرة الأموات يلتقى فيها الحبيبان لتقبل الحبيبة فيها أول هدية من حبيبها؟ ولـكنها تقول هـذا جادة وقد لبس وجهها لبـاس العزم لأول مرة .

قال المثال هازئا : « ومتى هـذا اللقاء الشـعرى البديع ياربة الحسن وملـكة الجمال ؟ »

قالت : « بعد مائة عام » .

لقد جنت « خلود » ما فى ذلك ريب . مسكينة تلك الجميلة الغريرة ، انها لا زالت تقول وكأنما قولهـا الجد كل الجد : « أقسم لك بأنى سأفى بعهدى ، ولن نفترق من بعدها أنا وأنت . سألقاك فى المقبرة بعـد مائة عام » .

انها تمعن فى الجنون . مسكينة خلود ؟ ..

ولـكن ما دامت تعيش فى هذا المنزل العجيب الذى

اصرت على أن تسميه قصرا ، وما دامت تقرب هـذه البطاقة من المأفونين الحقيرين ، فماذا كان ينتظر لها ؟..

وحمل المثال الحزين تمثاله ثقيلا الى معمله ، وأقامه بين ما كان هناك مما رفضت خلود من تماثيل . ووقف يتأمله بعد أن هدأت ثورته وبعد أن بعدت عنه فكرة تحطيم كل شيء . انه أحب الحياة ، وسينفق حياته هنا فى المعمل بعيدا عن « خلود » ، كما كان بعيدا عن سائر الناس من قبل . نعم سيزوره طيفها كثيرا ، وسترن كلماتها الجادة الوحيدة التى سمعها منها : « سألقاك فى المقبرة بعد مائة عام » . وسيهز رأسه أسى وحزنا . وسيذكر كيف كان لقاؤه اياها فى أول موعد ضربته فى الغابة الجميلة ثانى يوم بعد الغروب . وسيذكر كيف انها لم تخلف ميعادها فيفيض به الألم والحنين .

مسكينة «خلود» ، ان أمرها لأعجب مما كان يظن ، لقد جنت دون شك . ولكن ماذا كان يمكن أن ينتظرها ما دامت قد أصرت على أن تعيش فى هذا المنزل العجيب الذى تدعوه قصرا ، والذى لا يمكن أن يرضى عنه حتى الطالب الصغير فى مدرسة الهندسة ؟.. نعم وماذا كان يمكن أن ينتظرها ما دامت قد أصرت على أن تلقى هؤلاء المأفونين المغرورين كل يوم بالترحاب وتقبل هداياهم التي لم تكن لتعيش أكثر من يومين ؟..

حديث آمنة

كنا على شاطىء البحر يعلو حديثنا أمواجه حينا ، ويتيح السكوت لصوت الأمواج أن تملأ آذاننا حينا آخر ، حتى مرت بنا آمنة . رشيقة القوام ، مشرقة الوجه ، باسمة الثغر ، يزيدها جمالا بساطة ما تلبس وحسن اختيار ما تتزين به .. واذا صديقتى تقول : هذه آمنة . فنظرنا اليها جميعا وابتسمنا تحية لها ، فابتسمت وسارت فى طريقها . ولكن صورتها لم تغادر عيوننا ، فقد انبرت صديقتى تسألنى : ما رأيك فى آمنة تلك ؟ قلت : انها طيبة على أساس من الخلق متين فيما سمعت . قالت : انما اسأل عن شكلها ؟.. قلت : انها لجميلة أو تكاد تكون ، انى لم أرها الا مرات قليلة ، وأكثر ما رأيتها عابرة كما عبرت بنا الآن ، ولكنك أنت صديقتها وزميلتها ورأيك فيها أصدق من رأيى . قالت : انى لأراها جميلة جدا ، ولكن كانت منا من تراها قبيحة . كم أثارت فى نفوس زميلاتها الحسد وهى لا تدرى انها تثير فى نفس أحد شيئا . كان لها عالمها تسبح فيه ، ونحن من حولها نظن انها معنا ونحار فى أمرها ، فلا هى تغضب أحدا ، ولا هى ترضى عن أحد . كنا نراها باردة جامدة متكبرة ، فمنا من

احتملتها ولم يغير هذا من نظرتها اليها ، ومنا ، وهذه كانت كثرتنا ، من أبغضتها ونفست عن بغضها وحسدها بالحط من شأن جمالها ، بل بمهاجمتها أحيانا . ولكنها كانت كالنجم عالية لا تحس بهذا الصخب الذى يتصاعد من سكان الأرض . كم ظلمناك يا آمنة ! كنا نظن هذا كبرا منك وزهوا بجمالك واعتزازا بمالك ، فقد كنت أيسر منا حالا وأسعد حظا . ولكن حسدنا اياك كان أجدر أن يكون شفقة بك . فمن العسير أن تحرم المرأة مالا وجمالا ، ولكن الأعسر منه أن تمنحهما فلا يتيسر لها أن تنعم بهما . لقد صرفت حياة آمنة عن مالها وجمالها صرفا ، واذا هى تشقى ولا تعرف لنفسها من الشقاء مخاصا .

ثم سكتت صديقتي وعلا صوت الأمواج صوتها وتنبهنا جميعا من غفوة الانصات اليها. ولكنى لم أطق أن أسمع من حديث آمنة هذا القدر دون أن أعرف ما أوحاه . فقلت : ومن أين يأتى الشقاء تلك المخلوقة الهادئة الجميلة ؟ قالت : من قلبها ، وانه لقلب كبير عظيم له جلال مظهرها وجماله وعذوبة حديثها وحلاوته. ثم سكتت الصديقة هنيهة ، كأنما تحاول أن تستعيد الذكريات ، واندفعت فى كلامها بعد حين لم تنتظر سؤالا ولا استفسارا ، ولكنها ، كعادتنا فى سرد ما لا يعرف من الأخبار ، استحلفتنا الا ننقل الى أحد مما سمعنا شيئا ، فأكدنا لها ذلك ، فقالت :

كان ذلك فى يوم صاف مشرق دافىء من أيام ابريل ، يوم لن انساه ، فقد هز مشاعرى أكثر من أى يوم من أيام حياتى ، وكنا فيه فى المدرسة وقد دق جرس انتهاء الدرس . فاندفعنا نحن المعلمات الى غرفتنا

وكأنما قد أنقذنا انقاذا . واذا آمنة تدخل علينا متأخرة كعادتها ، فقد كانت تحب تلميذاتها ويحببنها حبا عجيبا ، فاستطاعت بهذا الحب أن تقهر ملال الدرس وسخافة التلميذات المشاكسات . ولكنها ما كادت تستقر فى كرسيها حتى دخلت علينا تلميذتنا هدى ، وهى صبية فى الخامسة عشرة من عمرها ، كثيرة الاجتهاد ، شاذة الذكاء تكاد تكون قبيحة لولا بريق من الذكاء يلمع فى عينيها الكبيرتين ، وابتسامة مشرقة تشع فى وجهها أبدا . وكنا جميعا نحب هدى هذه ، لأنها كانت رقيقة الاحساس ، مهذبة الطباع ، ذكية الفؤاد ، تدل تصرفاتها جميعا على انها من أصل طيب يمتاز بالرقى أكثر مما يمتاز بالمال .

واقتربت هدى من آمنة وقالت : انى آسفة على ما قد بدر منى فسامحينى . فنظرت اليها آمنة مضطربة تكاد تدمع عيناها ، وقالت فى شىء من الجفاء لم نعهده فيها : لقد سامحتك . ولكن هدى انفجرت فى البكاء وهى تقول : انت آخر من كنت أريد أن أغضبها منى . فقامت آمنة تهدىء من روعها وتجفف دمعها وهى تقول لها : لم أغضب منك . عودى الى صاحباتك يا هدى والعبى معهن بدل أن تضيعى وقت راحتك فى تلك الغرفة الثقيلة . انى لست غاضبة . انى أحبك ياهدى فعودى . وكأنما كانت تريد آمنة أن تتخلص منها فى سرعة ، ولكن هدى تعلقت بها وهى تجهش بالبكاء قائلة فى صرخة شاذة : وأنا أحبك ، أحبك أكثر من أمى . ليتك كنت أمى . نعم ! ليتك كنت أمى ! ولم تكد آمنة تسمع هذا حتى سقطت على كرسيها ، وأخذت احدانا هدى من يدها وأخرجتها

الى الحديقة . والتفت أنا الى آمنـة فقـد كنت لها الصديقة الوحيـدة اذ ذاك فاذا يداها كالثلج وعيناها غائرتان من الاعيـاء . فخشيت أن يكون قد أصـابها شيء ، فضغطت على يدها وقلت لها : مالك يا آمنة ؟ قالت : لا شيء لا شيء . ودق الجرس واندفعنـا الى حجر الدرس ، ولـكن آمنة أعتـذرت الى الناظرة ، وعادت الى منزلها متعبة .

ولمـا عدتها فى هـذا المساء وجدتها تذرع غرفتهـا ذهابا وايابا فى اضطراب عنيف . وجلست اليها أهدئها واستحثها على الـكلام ، ففى البوح بما تكتم شفاؤها ، فقصت على قصتها :

كان ذلك منـذ أعوام كثيرة مضت وآمنـة تستقبل الحياة فى طهـارة الفتـاة الطيبـة واسـتبشارها . قالت : ولم أكن أرى فى هـذا المستقبل البعيد شيئا . لم أكن أحلم بالأمومة ولا بالزوجيـة ، كلا ولا بالحب . كان مسـتقبلى البعيد غدى وما سـأعمل فيه مع صـديقاتى فى المدرسـة . لست أدرى لمـاذا ظللت الى هـذه السن المتأخرة ، فقد كنت فى العشرين تقريبـا لاتداعبنى أحلام تداعب كل فتـاة قبل هـذه السن بأعوام . لعل تربيتى كان لها أكبر الأثر فى ذلك ، فأنت أعلم بأسرتى وأحوالها . وكانت أختى الصـغيرة هى سلوتى . أحبها كما كنت أحب دميتى . ولـكن العجيب انى لم أتمن أن تـكون لى بنت فى جمالها . ولو قـد تمنيت ذلك وأحسسته لربما انقـذت مما قد وقعت فيه . لست أعرف كيف أبدأ حديثى اليك ، ولـكنى أظن انه قد بدأ عنـدما مرضت أختى الصغيرة مرضها الأخير ، فعادها الطبيب وفى صحبته عمى سـعيد كما

كنت أدعوه ، فقد ألفت أن أراه فى بيتنا منذ كنت طفلة . كان صديق أبى وشريكه فى تجارته وزوج ابنة عمه التى كانت تزورنا قليلا ، لأن أمى لم تكن تألفها ولا تحبها . وكان بغض أمى لها لا يفسر بما كان يشاع من ان أبى كان سيتزوجها ليس غير ، ولكن لشراسة تلك السيدة وقسوة قلبها أكبر الأثر فى نفور الناس منها . وكانت تزورنا وكأنها مضطرة الى تلك الزيارة ، لأن زوجها كان يحب أبى حبا جما ، وكان يحب أن يجلس اليه ليتحدثا فى شئون تجارتهما أحاديث طويلة. وكان عمى ، كما تعودت أن أدعوه ، أكثر من أبى علما وأقل مالا . ولعل فى قول أبى انه شريكه كثيرا جدا من التجاوز ، فلقد كان فى الواقع يساهم فى تجارة أبى بمقدار ضئيل ، ولكنه كان يقدم لهذه التجارة فى اخلاص كل ما كانت تحتاج اليه من خبرته القانونية ومعرفته العامة بالدنيا والناس . فلقد كان مثقفا ثقافة ممتازة . عاش فى أوربا أعواما وزار أكثر بلادها ، ودرس عن كثب أسواقها التجارية ، كأنما كان يميل بفطرته الى التجارة فلم يسعفه رأس المال . فلما اتصل بأبى صلة النسب والصداقة التى مهدت لهذا النسب وجد عنده ما كان ينقصه فنمت ثروة أبى على يديه نماء عظيما ، وأصبح عنده هو من رأس المال ما لم يكن يطمع فى أن تيسره له خبرته العلمية وحدها .

ولكن مالى أطيل عليك فى هذا ! لقد كان كل منهما مكملا لصاحبه فى الحياة العملية ، وكذلك كانا فى حياتهما الروحية فيما كنت احس . وثقل المرض على أختى فى أيامها الأخيرة فكانت زيارته لنا يومية ثم عجزت أمى عن العناية بالمريضة الصغيرة اذ مرضت

خوفا وقلقا ، ولم يكن بد من أن أمرض أنا الاثنتين .
أتذكرين تغيبي عن الدراسة اذ ذاك شهرا كاملا ؟ ..
ثم ماتت أختي وطال مرض أمي وشقاؤها ، ولكنها
شفيت لتعيش كما ترينها الآن حزينة والهة على تلك
الصغيرة الجميلة . فلم يبق لها بعدها الا أنا ، وأنا كما
ترين لا أملأ فراغ قلب أو بيت .

ألفت عمي وأحببته حبا بدأ أبويا وانتهى عنيفا .
ولعله هو الذي أيقظ في هذا الشعور النائم الحالم
بالحياة والحب . فمنه سمعت أولى كلمات الاعجاب
الملتهبة بالعاطفة الصادقة . ولكنه كان يقاوم هذا
الحب مقاومة عنيفة لا من أجل زوجه ولا من أجل
هدى ، فهدى تلك ابنته ، ولكن من أجلي أنا . كان
يقول لي ان الفرق بيننا في العمر أكثر من ربع قرن ،
فان أسعده هذا الحب مدى الحياة فلن يسعدني أنا
الا أعواما قصيرة . وكنت أنفي عنه هذه الفكرة .
ولكني لم أكن أفكر يوما في أن أكون له زوجة . كان
حبه لي حبا أفلاطونيا كما يقولون . يعبدني كما
يعبد الوثنيون أصنامهم ولا يكاد يلمسني كما يخشون
هم لمس ما يعبدون . وعشت في هذا النعيم عاما ،
لا أفكر الا في متى ألقى عمي سعيدا ، ومتى أخلو
اليه لنتحدث فيما كان يجيده من فنون الحديث .
والعجيب انه لم يكن ليشير الى زوجه ولم أكن لأشير
اليها أنا أيضا ، كأننا كنا لا نريد أن نعكر صفو أحلامنا
بالواقع المرير . وفجأة عرض علي في يوم من الأيام أن
أتزوجه ، فبهت لهذا العرض . وكنت أسمع طوال هذا
العام انه كاره لعيشه مع زوجه ، ولكني كنت قد
ألفت هذه الأخبار لأنه لم يهنأ في عيشه معها يوما ،

ولكن حبه لهدى كان مضرب الأمثال ، وكنت أملل بقاءه مع زوجه واحتماله أخلاقها بحبه لهدى . فماذا حدث ؟.. قلت له : انى لا أريد . قال : فكرى فى الأمر ، وتركنى . وفكرت فوجدته مستحيلا . كيف أحرم طفلة كهذه من أمها مهما تكن ، وقلت له : ان آخر رأيى كأوله لن أحرم هدى من أمها . قال : انى أحبها أكثر منك وأنا أدرى بصالحها . قولى انك لا تريدينني أنا . قلت : هو هذا ، ولن أحرم هدى من أمها . وكان هذا آخر ما كان بيننا .

وظل عمى سعيد يدخل بيت أبى فلا أتحاشاه ، ولا أتعمد لقاءه . وفترت حرارة الحب اولا جمرات صغيرة تحت الرماد ، بل لقد مرت بى فترات كنت أنظر اليه ، فأعجب مما كان بيننا من عاطفة حارة . حتى فضت الشركة بينه وبين أبى ، ورحل هو الى أوربا لأعمال تجارية قد تنقذ ثروته من الضياع . فحزنت لفراقه ، ولكنى فى الوقت نفسه ارتحت اذ ظننت انه قد أسدل الستار على كل ما كان بيننا . ولكن أخباره عادت تملأ البيت من جديد . واستقل بتجارته ، ولم ير أبى لذلك سببا ، ولكنى كنت على يقين منه . وافترقا صديقين . وعاد لتجارة أمن رواجها فى هذه الحرب ، حتى ان ثروته لم تنقذ فحسب ، وانما تضاعفت ؛ ولولا وفاته منذ أعوام لأصبحنا من أغنياء الحرب .

وفى هذه الأثناء كبرت هدى وجاءتنى تلميذة منذ العام الماضى . فأيقظ مظهرها هذا الحب القديم من مدفنه ، وبدأت أفكر فى عمى سعيد من جديد ، ترى ما أحواله ؟.. قالت لى أمى مرة كأنما تروى خبرا عابرا : ان هدى بنت فلانة عندك فى المدرسة ؟ قلت :

نعم . قالت : كيف هى ؟.. قلت : ذكية طيبة . قالت : ما أشقاها ! قلت : لماذا ؟.. قالت : بأمها . قلت : ولكن لها أبا تحسد على حبه لها . قالت : انه أفلس . فخرجت من الغرفة حتى لا يلحظ على أحد شيئا . ترى لماذا أفلس ؟.. وهل كنت أنا عاملا فى هذا ؟.. فلقد كنت السبب ولا شك فى استقلاله عن أبى ، وربما كان هذا هو سبب افلاسه . ولكنى اعتدت أن أدفن هذه الآلام بالخروج اليك ، فكنت آتيك على غير ميعاد لنتحدث . أتذكرين ؟.. قلت : أذكر ، ولكنك لم تقولى شيئا من هذا . قالت : وكنت أريد ألا أقول شيئا أبدا ، فلقد كنت على يقين من أمرى حتى اليوم . كنت كلما نظرت فى عينى هدى الواسعتين البراقتين قلت فى نفسى : كم وفقت فيما ارتأيت لحياتى من مسلك . ألست أستطيع اليوم أن أنظر الى هاتين العينين مرتاحة الضمير قويه القلب فلا يرتد بصرى ولا أشيح بوجهى خجلا منهما !.. انى لم أعذب تلك المخلوقة الساذجة ولم أضح بها لأسعد أنا . كم كنت على حق !.. انى ألقاك يا هدى فأعطف عليك فى حرية واطمئنان ورضا عن نفسى .

وكانت كلمة أمى : « ما أشقاها بأمها » ترن فى أذنى أحيانا فأفكر فيها طويلا وكثيرا . فلقد كبرت ، وعرفت من أخبار هذه الأم كثيرا . انها لا تعيش الا ظلا لزوجها وأمر هدى يأتى فى المرتبة الثانية ان أتى . فان حنا عليها زوجها ، وأنفق عليها فى سعة من ماله خفت حدتها ولانت قسوتها . ولكن الويل لهدى ، بل لكل من يمر بحياتها اذا ما جفاها زوجها ، أو قتر عليها فى المال . وهذا هو قد

أفلس ، والافلاس يستتبع شذوذا فى الخلق ونفورا من الناس ، بل كرها لهم . ترى اتعانى من جفاء ابيها لامها كما كانت تعانى طفله ؟.. انها اليوم صبية تفهم كل شيء حولها . ترى أتشقى بهذا ألفهم ؟.. وكنت أسائل نفسى كثيرا . أخيرا كان ما فعلت أم شرا ؟..
ألم اكن أستطيع ان أنقذ هذا الرجل من الافلاس ، وأنقذ هدى من قسوة أمها ، ولكن أأحرم هدى امها ؟.. هذا مستحيل . انها لن تحس قسوه أمها الا الى حين ، ثم تعود فلا ترى أحدا كهده الام .

وهكذا انقضى العام الماضى ، وأنا أفكر فى هدى وفى نفسى . أسائل نفسى مرات فى اليوم : أخيرا كان ما فعلت أم شرا ؟.. وأنا لا أريد أن أستطلع شيئا ، أو أسأل عن شيء . وفى يوم رأيت عمى سعيدا من بعيد ، وكانت الصلة بينه وبين أسرتنا تكاد تكون قد قطعت بعد أن أصبحت لا تعتمد الا على قرابة أبى لزوج سعيد وكره أمى لها . وجمعت طرفا من شجاعتى وتقدمت اليه وصافحته . فصافحنى ثم تحاشانى وسار فى طريقه ، يا لهول ما قد تغير !.. ان التجاعيد ملأت وجهه وبهت نور عينيه حتى كاد يطفأ . انه الآن رجل قد جاوز الخمسين بقليل ، ولكنه يبدو فى الثمانين من عمره . وعدت الى نفسى ذلك اليوم باكية حزينة أسائلها فى حرارة : أخيرا كان ما فعلت أم شرا ؟.. وأبعدت الموضوع فى عنف وجهد وأنا أقول : وهل يمكن أن تكون الفرقة بين أم وابنتها خيرا ؟..

واخيرا لا اطيل عليك ، فقد رأيت اليوم وسمعت مارأيت وسمعت : « ليتك كنت أنت أمى » . نعم حتى هدى معقلى الأخير الذى كنت أعتصم به فى انى ما فعلت

الا الخير يسقط أمامى كأن لم يكن . حتى هدى تريدنى بعد نحو عامين من معاملتى لها كتلميذه أن أكون لها اما . ان صرختها لم تكن صرخة عابرة . انها صرخة من الأعماق ونداء من القلب . انها تحبنى ، وكان يمكن أن تحبنى وتسعد بدل أن تشقى بحب أمها . ترى أقال لها أبوها شيئا ؟ ..

واستمرت آمنة تتحدث كأنما تناجى نفسها وهى تبكى . كم رثيت لها ! حقا لقد كانت صرخة هدى صرخة شاذة ، ولكن أأقول لآمنة اننا ذهلنا لها جميعا ؟ .. كلا ! ..

قلت لآمنة : انها صبية لا تدرك شيئا ، ولم يكن فى صوتها وقد سمعتها أكثر من احساس عادى بالندم لأنها أغضبتك . ومن هى من تلميذاتك التى تحب أن تغضبك !.. ثوبى الى رشدك . لقد فعلت خيرا ، وكان اتماما لهذا الخير ألا تظلمى نفسك وتستجيبى لأحد الكثيرين الذين طلبوا يدك وكانوا لك أكفاء . قالت : انى لا أزال أحبه . قلت : هذا وهم يجب أن تخلصى نفسك منه . لقد فعلت خيرا ولا تفكرى لا فى هدى ولا فى سعيد . ان الأم ان كانت وحشا ضاريا فهى أحن على ابنتها من زوج الأب . فكرى فى انك كنت ستصبحين أما لغير هدى ، وفكرى فى امكان المساواة بين هدى وبين ابنتك . صدقينى يا آمنة لقد فعلت خيرا . خففى من عبرتك ، وانظرى الى الحياة . انها تقبل عليك اقبالا ، فلك فيها المال والجمال ، ولعمرى انهما لكفيلان باسعاد أشقى امرأة . استبشرى والبشر يأتيك . قالت آمنة فى هدوء : يا ليت هذا يكون . وخرجنا الى النزهة ثم عدنا وقد

اطمأنت نفس آمنة كثيرا .

ولكن آمنة لم تعد الى المدرسة أسبوعا وأسبوعين . وكنت كلما ذهبت اليها قالت : انى لا أطيق أن ارى هدى . قلت لها : كلا !.. بل ترينها وترينها وتنظرين الى عينيها الواسعتين وأنت مطمئنة سعيدة . انك لم تكونى سببا فى شقائها . اعطفى عليها ما شئت أو تجنبيها ان شئت ، ولكن لا تنسى أن تنظرى اليهـا وأنت رافعة الرأس مطمئنة القلب . لقد جنبتها أن تبكى لتسعدى . قالت مستبشرة : أحقا ما تقولين ؟ قلت : كل الحق .

وبعد أسابيع عادت آمنة الى درسها ، ولكن هدى لم تعد ، فقد انتقلت الى مدرسة أخرى لسبب لاندريه . أقالت لأبيها شيئا فتصرف هكذا فى ابنته ، أم ان المقادير هى التى تصرفت فى أمر آمنة هذا التصرف ؟.. وتابعت آمنة عملها فى اطمئنان وهدوء ونشاط . وسرعان ما عادت الى سمائها . وفترت صداقتنا لأنها لم تشجع على استمرارها ، وابتعدت عنها تحقيقا لسعادتها ، فقد أكون لها ذكرى لا تحب أن تمر بفؤادها كثيرا . وعاد قلب آمنة مقفلا كالحصن . كم اشتقت أن أعرف ما يدور بهذا القلب من عواصف واضطراب !.. ولكن آمنة لم تشجع أحدا على الدنو منها . وهاهى ذى تسير الى اليوم بيننا فى جمالها وجلالها تعلو وجهها الجميل مسحة من الحزن لا يراها الا الأقربون .

ثم سكتت صديقتى هنيهة لتقول كأنما هى تقول لنفسها : ترى أخيرا كان ما فعلت آمنة أم شرا . حقا لست أدرى .

ومرت بنا آمنة عائدة بعد أن انتهت من زيارة أو رياضة ، فتأملتها فاذا فى ابتسامتها مرارة تزيد من جمال ثغرها ، واذا فى عينيها حزن يزيدهما عمقا وسحرا ، واذا هى فى جمالها وجلالها ومن ورائها البحر بامتداده واتساعه كالمركب الضائع فى لجج البحار . انها أروع صورة للهائمين على وجوههم فى هذه الأرض لا يدرون أعلى بر النجاة نهايتهم ، أم فى هذه الأعمال السحيقة المخيفة سيكون المصير .

من كتاب همس الصحراء

قصة معبد

اذا قلت المحال رفعت صوتى
وان قلت اليقين أطلت همسى

أبو العلا المعرى

من أيام شهر يوليو وكأنما حرارة الطقس قد مدت فى ساعات هذا اليوم الصائف الحار فأصبح كأنه الأبد لا يشعر بانتهاء . فخرجت الى تلك الصحراء القريبة التى أحس فيها وحدها الحرية ، وألتى أعود منها دائما ، وقد فهمت هذا الكلام الذى أقرؤه فى الكتب حول معانى الحرية ولا أحسه فى حياة تبدأ أيامها قيودا ، وتنتهى قيودا . وما كدت أسير فى الصحراء وأستنشق هواءها الجاف حتى بعث فى نفسى على دفئه نشاطا لم يكن لأى شىء سواه أن يبعثه ، واذا هذا النشاط يغرينى بالسير ، واذا أنا مطمئنة الى هذا الابعاد فى الصحراء ، وكأنى واثقة انى مهما قضيت فيها من الزمن فسأعود قبل أن ينتهى هذا اليوم الطويل . ولا يعرف سحر الصحراء الا من سار فيها راغبا فى هذا السير الذى لا يوصل الى غاية ، ولا يقصد به قطع الطريق . فلعل أجمل ما فى الصحراء هو هذا الشعور المطمئن بالضياع . انه شعور عجيب يجمع بين نقيضين ، وليس أبلغ فى التأثير فى النفس من اجتماع المتناقضين .

وعن بعد لاح لى بناء لم أكن رأيته من قبل . فقلت فى نفسى : لعلى اتجهت اتجاها جديدا . ولم استرسل فى هذا التفكير ، فقد كان شىء غامض يسرع بخطاى نحو هذا البناء ، فأسرعت حتى كدت أعدو عدوا ، والبناء تظهر لى معالمه وتقترب ، فأعجب لهذه القبة الشامخة من بناها فى هذه الصحراء ، ترى ومن يعمرها ؟.. أهى أثر قديم ، أم ان أحدا يسكنها سأحدثه ويحدثنى فأرى صاحب هذه العزيمة الجبارة الذى بناها أو صاحب هذا الحظ السعيد الذى يعيش فيها ؟.. ترى لم أفرد نفسه هنا وسط هذا الفضاء الواسع ؟.. أعابد هجر الحياة مختارا ، أم سجين أفردوه قسرا وانتقاما ؟.. لا ولكن القبة كبيرة فخمة ، ولا يمكن أن تكون لفرد . انه معبد قديم فيما يلوح . وعدوت .. وعدوت ، واذا بناء فخم ليس فى المدينة ما يماثله أو يدانيه . انه يذكرنى بالمعابد التاريخية القديمة ، فان شيئا فى حجارته وفخامته يوحى بالخلود والأبد . ولكن أمره عجيب فهو جديد ولا شك ، ولكنه مهمل اهمالا فاحشا ، فلم يبق من جدته فيما يظهر الا معالم لولا وضوحها لكانت قلتها كافية لخفائها . وكنت كلما اقتربت احسست وحشة ورهبة كانتا كفيلتين برجعى أو اثباتى حيث أنا لولا حب الاستطلاع . واذا أنا قد كدت أصل الى أسوار المعبد الخارجية فأرى شيخا لفتنى اليه مظهره . فقد كان يجلس على الأرض ، وفى يده عود قصير يداعب به الرمال فى هدوء وتأمل طويلين حالمين . وما كاد يحس خطواتى حتى رفع جفنيه فى تثاقل . ولم يكد نظره يرتفع الى أكثر من ساقى حتى عاد الى رماله يداعبها كأن نسمة من نسمات

الصحراء مرت على وجهه الأسمر الدقيق . فوقفت هنيهه أتأمل هذا الشيخ فى ملابسه البيضاء الناصعة . ولحيته نفصية التى توحى بالهيبة والوقار ، ووجهه الوسيم الشاب الذى لا تكاد تلمح فيه أثرا الا يسيرا للتجاعيد . وكان لهذه اللحية البيضاء على الوجه الأسمر الشاب لسحر جميل . وتأملت أنفه الدقيق وجبهته العريضة ، وسألت نفسى : ماذا تكون أخلاق رجل هذه ملامحه ؟.. ثم ابتسمت فى نفسى من مثل هذه الأفكار تلوح لى فى هذا الموقف . وأفقت ، واذا انتظارى قد طال ، فبدأت أحس شيئا من الارتباك ، فلولا هذه الخطوط القصيرة التى كان يرسمها الشيخ فى بطء لم يكن من الصعب أن أظن ان هذا الذى أمامى تمثال دقيق الصنعة ، قد ألقى فى الصحراء القاء . ترى ماذا يمكن أن أقول له ؟.. واذا صوت من بعيد ، فنظرت فاذا طائفة من الشبان تدخل هذا المعبد الفخم ، وتختفى وراء الأسوار الحديدية التى أحاطت به . وقبل أن أفكر فى شىء كنت أعدو نحوهم لأسألهم عن أمر هذا المعبد ، ولكنهم تواروا داخله قبل أن أقطع نصف المسافة التى تفصل هذا الشيخ عن الأسوار . فعدت مرة أخرى ، ولما لم أجد هذا الشيخ قد تحرك نفد صبرى ، فقلت : « ياسيدى » وكأنما كان صوتى يخرج من جوف الأرض لا من حلقى . وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى رفع الى بصره فى تثاقل ، فاذا عينان حادتان تنفذان الى نفسى ، فأحس كأنها عارية خجله تكاد تتلاشى من خجلها فى هذا الفضاء ذرات متناثرة ، واذا صوت وقور نقى يقول : « وماذا أتى بك يا بنتى الى هنا ؟ ». قلت : سيدى وما هنا هذه ؟

ولماذا تنظر الى هكذا ؟ وأحس الرجل انى خائفة أحاول اخفاء خوفى فى التلهف على معرفة ما لم أكن أعرف . قال : « أما هنا يا بنتى فهذا المعبد . وأما نظرتى فاغفريها لى ، انى لم أرفع البصر عن الرمال منذ أعوام ، ولم أر الا لونها الأصفر الأبيض حتى كدت لا أميز الألوان». قلت : وكيف تعيش؟.. قال : « انى أعرف بعض سدنة هذا المعبد فهم يقومون بخدمتى ، ولكنى لا أرفع بصرى اليهم لأنى لا أريد أن أراهم . ولولا انى لا أملك البعد عن هذا المعبد ما أطقت العيش هنا فى جوار هؤلاء . عودى يا بنتى من حيث أتيت فان فى صوتك اخلاصا ، وفى ملامحك سذاجة يقتلهما هذا الجو الخانق » . قلت : «ولكن ماذا يضطرك الى هذا ياسيدى ، وأمامك المدينة واسعة ولن تعدم من الأصدقاء فيها من ييسر لك عملا تعيش منه قرير العين فلا تحتاج الى هؤلاء الذين لا تطيق أن ترفع فى وجوههم بصرك ؟ » . فابتسم الشيخ ابتسامة عابرة من جهلى وقال : « انى لا أطيق الاقامة فى المدن والبيوت . عودى يا بنتى . ألم أقل لك أن فيك اخلاصا وسذاجة ؟ »

وعاد يداعب رماله فى حركة أن تكن أسرع من حركاته الأولى فانها ما تزال بطيئة حالمة . وخفت ألا يجيبنى فقلت : سيدى ، سأعود فى الحال ، ولكن لى رجاء . قال ولم يرفع بصره : « حتى انت ! » قلت : وماذا ؟.. قال : لا تعملين الا بثمن . قلت : رجائى أن تقص على قصة هذا المعبد ، وأؤكد لك انى لن أسألك شيئا ، ولن أستفسرك عن شىء ، قص على من أمره ما شئت ، واحذف من خبره ما ترى ، ولكن

لا تدعنى اذهب وفى النفس ظمأ الى معرفة أمر هذا المعبد فأعود اليه وأنت لا تريد أن أعود . قال : كلا يا بنتى ليتك تعودين ، وقد تبدلت الحال ، بل ليتك جئت الى هنا منذ أعوام اذن لتلقيتك بالترحاب ، ولدخلت المعبد فلا تبرحين . ولكن ... ثم رفع بصره الى السماء ، وتنهد تنهيدة مكتومة حائرة ولم يقل أكثر من « يارب » ثم صمت . وشع نداؤه حارا فى الصحراء وفى جوار المعبد احساسا بخشية الله لا يمكن أن يوصف . انه غيبة عن هذا العالم يتصل الروح فيها بشىء غامض قوى فتغمر النفس سعادة ويسرى فيها أمن . وأفقت على أصوات منكرة تنبعث من هذا المعبد ففزعت وهممت بأن أعدو هاربة ، وقد خيل الى أن وحوشا ستنطلق فى اثرى ، لولا ان الشيخ قال لا تفزعى يا بنتى انهم يرتلون آياتهم فى الصلاة ، اجلسى على هذه الصخرة فسأقص عليك قصتهم ، وانها لحقيرة مؤلمة ، ولكنهم لا يقدرون الا على هذا . استريحى يا بنتى فلقد سرت طويلا واهتزت أعصابك هزات عنيفة لم تتعوديها ، انى قد علانى المشيب منها وأنا فى شرخ الشباب . قلت فى نفسى ان أمره لأخطر مما قد دار فى خلدى . هذا الصوت النقى الوقور ، وهذه اللحية البيضاء ، وهذا الوجه الشاب ، ثم هذه الجلسة التى لا يفيق منها ويكاد يقضى حياته فيها . ان أمره لأعجب من أمر المعبد . قلت : سيدى أتحدثنى حديثك أنت ولنترك أمر المعبد ومن فيه ، فقد تضاءل شأنه بعد ما سمعت من أصوات سدنته المنكرة ؟.. قال : ان قصتنا لواحدة.

منذ أعوام طويلة جاء الى هذه الصحراء نفر من

شبان المدينة عرفوا الحياة يقينا ، فزادهم يقينهم بها ايمانا ، وتطلعوا الى خير ما يتطلع اليه انسان ، فزادهم تطلعهم حماسة واخلاصا ، وأجمعوا ان خير ما ينفقون فيه أعمارهم هو التفرغ لعبادة من خلقهم مستعينين على التقرب اليه لا بالصلاة والتسبيح فحسب ، ولكن بالسعى أيضا وراء المعرفة ، والبحث عن الحقيقة . ففى السعى وراء المعرفة تسبيح ، وفى البحث عن الحقيقة صلاة . وقالوا : اننا لنفرغ لعبادتنا يجب أن نبعد عن المدينة وما فيها من لهو وزيغ ومطامع وأغراض، ونقيم هنا فى هذه الصحراء لا نزور المدينة الا مضطرين أو ساعين ، نحتك بالناس لنعرف طبائعهم ، ونعامل الناس بالقدر اليسير الذى نحتاج اليه لمعاشنا ، أو بالقدر الذى يمليه علينا حبنا لمعرفة الانسان هذا المجهول الذى أتعب العلماء والباحثين منذ خلقوا . وفيما عدا ذلك فمقامنا فى هذه الصحراء يعين بعضنا بعضا ، على ما يدرس ويقوى صوت أحدنا أصوات اخوانه فيما ترتفع به من تسبيح بحمد الله . وقليلا قليلا قويت جماعتهم ، وبهرت فكرتهم بعض أهل المدينة ، فمنهم من انضم اليهم بروحه ونفسه ، ومنهم من وجد فى فكرتهم مجالا لخلود الذكر ، فقال لهم نبنى لكم معبدا . وراق لهم هذا العرض وتقبلوا فضل هؤلاء المخلصين وتفاءلوا به . وقالوا : هكذا يمن الله علينا ليشجعنا على السير فيما بدأناه . وتنافس الناس فى المدينة لاقامة هذا المعبد لهؤلاء المؤمنين ، منهم من دفع من ماله لا يبتغى الا المشاركة بما يملك فى تحقيق فكرتهم الجميلة ، ومنهم من رأى فى ذلك فرصة للمباهاة والظهور .

والانسان قد فطر على التنافس والتفاخر . وشيئا فشيئا شيد هذا المعبد الفخم . لو رأيته يا بنتى يوم كمل بناؤه ! لقد كان آية من آيات الجمال ، كان عليه ضوء من السماء كأنما السحب قد انقشعت من فوقه وحده فأنارته وقد حجبت النور عن سائر ما حوله . كان لؤلؤة مضيئة لامعة فى رمال هذه الصحراء الباهتة . ودخل الشبان معبدهم ، وعكف كل منهم على ما كان يعكف عليه من قبل . ولست أذكر من أمرى شيئا الا انى كنت أهيم فى هذه الصحراء ، وفى ذاكرتى خيالات مفرقة ، وصور قديمة عن معابد سكنتها حينا وخرجت منها لا أدرى كيف ولا متى . فرأونى هائما فى الصحراء فأدخلونى معهم وأكرمونى وأحبونى ، فأحببتهم جميعا حتى انى لم أطق أن أقيم فى غرفة بعينها من غرف المعبد ، ورجوتهم الا يكون لى مكان معين فيه ، وان يأذنوا لى بزيارة من أشاء منهم . فحياتى التى جبلت عليها تأبى على الاستقرار فى المعابد . وفرحوا لهذا وازدادوا بى تعلقا ، وفى خدمتى تفانيا ، وعاشرتهم زمنا .

لو سمعت يا بنتى أناشيدهم التى كانوا يسبحون بها ربهم لكل مطلع شمس ومغربها !.. كانت أصواتهم أجمل نغم يمكن أن يسمعه الانسان . اصوات آدمية بلغت من الصفاء أقصى مبلغ ، ومن الحلاوة ما لايمكن أن تصل اليه آلة مهما تكن . وكان ترتيلهم يتصاعد من هذه القبة اللازوردية فى طريقه الى السماء ، فيحس سامعه ومنشده انهما قد رفعا من فوق هذا الأرض وقد أصبحا شيئا آخر غير اهلها شيئا قريبا من عالم الملائكة بروائه وجلاله . حتى

اذا خرج الصوت من القبة وتجاوبت أصداؤه فى قبة السماء ، ثم أخذت أنغامه تغيب فاسحة لغيرها ملىء الصوت حنانا ، وفتح بحلاوته آفاقا وآفاقا ، من الجمال والجلال والروعة ، واذا الأطيار تدنو زرافات من أطراف الصحراء تدخل المعبد وتخرج منه محلقة مع الصوت فى آفاق السماء مرددة ألحان التسبيح خجلة أول الأمر من أصواتها ثم متشجعة بعد حين ، مغنية أصواتها الخاطفة القصيرة فى هذه الأنغام المليئة الطويلة . ان الأصوات الوحشية التى سمعتها الآن ، والتى أفزعتك هذا الفزع الذى أشفقت عليك منه . لا يزال أصحابها يريدون من سامعها أن يكشف لهم عن مثل هذه الآفاق ، ونسوا أو تناسوا أنهم لا يتطلعون اليها ولا يحسون من الحنين اليها شيئا ، بل ان صورها أصبحت لا تدور بخيالهم الذى ملىء رياء وزيفا ومآرب تفسد عليهم الحياة نفسها .

ومكثت معهم زمنا ، فاصطفيت أحدهم وأحببته أكثر من اخوانه . لقد كان أدقهم تصورا لفكرة هذا المعبد ، وأشدهم تحمسا لها ، وان حنينه الى الوصول الى الكمال فى أمر هذا المعبد كان أقوى من حنين اخوانه ، لسعة خياله واتقاد حسه ، وامكان روحه أن يحلق فوق ما تشغل به النفس عادة من أمر هذه الحياة . وكان كثير التأمل شامل النظرة ، فاتسع صدره لما لم تتسع له صدور الآخرين وقوى جلده وصبره على ما لم يقو عليه جلد الآخرين وصبرهم . وكنت أراه من حين الى حين ينتحى مكانا فى المعبد بطيل فيه التفكير فأعاونه ، واذا هو يفضى الى بدخيلة نفسه فى سذاجة الرجل العظيم ،

ورقة القلب الكبير . وكان أخوانه يحسون هذا الجو الذى شع عليهم فى المعبد ، وهو مشبع بالمحبة والخلوص للتعبد ، فلم يغاروا من حبى له وانما فرحوا به ، ولم يشغلوا أنفسهم بأمر اقصائه عنى، أو بحسبان ما يمكن أن يطرأ على علاقتنا من تغيير بفعل الزمن أو الظروف أو الناس ، وانما شاركونى فى حبى له ، فأحبهم هو وفسح لهم الطريق الى قلبى . وكثيرا ما حدثنى عنهم يحاول أن يكشف لى ما ظن انى لم أكن أعرف من محاسنهم . وفى يوم أرادوا أن يكون لهم رئيس ينظم أمر جماعتهم ، وأعمالهم وبحوثهم ، فلم يجدوا خيرا مما اصطفيت فبايعوه فرحين به . وارتفعت أصواتهم بالدعاء والشكر على ما وفقوا له فى أمرهم فكانت فى أحلى نغم وأرقه وأصفاه . ونظرت حولى فى أرجاء المعبد فتمتعت عيناى بجمال الفن وروائه : فهذه تماثيل صنعوها وقد وضعوا كلا منها على قاعدة تظهر أدق ما فى فنهم من آيات . ودخلت أشعة الشمس من قبة المعبد الزرقاء الصافية ، من تلك الفتحة الصغيرة فى القمة ، فتلاعبت بهذه الزرقة وألقت على التماثيل ألوانا وأشعة ، فزادت فتنتها . وكمل جمالها . وهذا أحدهم عاكف فى ركنه يقرأ ويكتب ، وهذا آخر يفكر ويتأمل ويطيل التفكير ويتعمق التأمل ، وهذا ثالث ينحت ويصور ، وتلك جماعة تتناقش وتتحدث ، وأخرى تصلى وتتعبد .

وكانوا قد أفردوا جزءا من المعبد يستقبلون فيه شبان المدينة الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا أمرهم فمنهم من كان يقرأ معهم ويتعبد فتحلو له الاقامة ، ويمكث معهم وقد عاهدهم وعاهد نفسه أن يظل منهم

مدى الحيـاة . ومنهم من كان يرى فى حيـاة العزلة تلك مشقة لا قبـل لمثله بها فيرجع الى المدينة شاكرا حامدا وفى نفسـه منهم أطيب ذكرى وأخلص حب . وسـدنة المعبـد يرحبون به اذا قرر المكوث معهم ، ويودعونه آسفين محزونين اذا قرر الرجوع الى المدينة. وهو اذا مكث فى المعبـد أصبح من سـدنته يقوم على خدمته كهؤلاء الذين سـبقوه يعمـل فى اخلاص ونشاط كل ما من شـأنه أن يجمل المعبـد وييسر الحيـاة الطيبـة لمن فيه ، يتعاون معهم فى ذلك حسب سـنه ومواهبـه . حتى اذا نما هـذا الوافد الجديد واكتمل بدأ يضيف هو أيضا من جهـده الى جهودهم ما يحقق فـكرة عبـادة الخالق صلاة وعلما .

وكان منظر هؤلاء الوافدين الجدد طريفا بديعا ، فقد كانوا يتحسسون جدران المعبد ، كما يتحسس الريفى الجلف قطعة من الحرير ، كأنما فى اللمس وحده لذة فائقة . وكانوا يتطلعون الى كبارهم ، كما يتطلع الطفـل الى أبيه فى اعجاب وحب ورغبة شـديدة عميـاء فى أن يقلده ، فهم يسيرون وراءهم يسألون فى الحاح عن كل ما يخطر لهم ، والآباء يحدبون عليهم ويفتحون ما أغلق دونهم وينيرون ما أظلم عليـهم . فاذا أتى من الوفود الجديدة من يسأل سؤالا كانوا هم سألوه من قبـل ضحكوا منه ضحكة لذيذة ، كأنما يرون فيه أنفسهم من جديد .

وأحب صـاحبى هؤلاء الجدد ورأى فيهم حجرا أساسيا فى بنـاء المعبد . ان حيـاة الانسان لقصيرة ، وفـكرة المعبـد أبدية أزلية . ترى من يقوم بها اذا أقعدت السن من بدءوا غير هؤلاء الشبان . ومن خير ما

تخدم به فكرة المعبد أن تكون الخطوة الجديدة فيه خيرا من السابقة ، وأن يكون الذين سيلون الأمر فيه خيرا ممن يلونه الآن . وتحمس صاحبى تحمسه لكل فكرة صائبة تلوح له ، وقال لهؤلاء الجدد : اننا نريد أن نعدكم لتكونوا خيرا منا . وملأ الغرور الطموح المحبب نفوسهم المتطلعة الشابة فقالوا : وأنا لنرجو أن نكون كذلك . قال : ان معبدنا هذا واحد من آلاف المعابد المقامة فى صحارى العالم الشاسع الواسع . ومن الخير لهذا المعبد أن يعرف القائمون بأمره ، لا ما يدور فى معبدهم فحسب كما يعرفون الآن ، ولكن ما يدور أيضا فى تلك المعابد الأخرى حتى يقفوا على أحسن الوسائل التى تتحقق بها فكرة المعبد العظيمة . ان من المعابد الأخرى القديم ، وان منها ما قد مرن فى التجارب قرونا ، فليذهب كل منكم الى معبد من تلك المعابد وسيرحب به أهله دون شك ، فليمكث فيه زمنا ، ثم ليعد الينا وقد عرف ما لم يكن له أن يعرف لو أقام هنا طوال عمره مهما أخلص. لقد زرت هذه المعابد مرارا وأقمت حينا فى غيرها ، ولكن الزمن يسير ، والكمال لا يدرك فى جيل ، فلتذهبوا اليها ولتقيموا فيها ، ولتحسنوا الدرس والأناة فى الدرس ، لعل فيكم الخير لمستقبل هذا المعبد المقدس . وتحمس الشباب الطموح لفكرة الرحلة فى ذاتها ، وأكبر أستاذه أكثر مما كان يكبره بعد أن ظن انه قد بلغ النهاية فى اجلاله واكباره . وودع أهل المعبد اخوانهم الصغار الراحلين ، وفى نفوسهم حسرة على فراقهم ، وفى تفكيرهم رضا عما سيكون منهم حين يعودون .

ومنذ ذلك اليوم الذى تولى فيه صاحبى أمر المعبد وأخذ يعنى بحاضره ومستقبله أحسست فى نفسى امنا ورضا ، واطمأننت الى ان الحياة فى هذا المعبد ستسير كل يوم نحو غايتها ، وستبعد عنها الغاية كلما بدت دانية فينعم سدنته بأمتع لذات الحياة ، لذات السعى الى غاية لا تدرك ، فلا يمكن السأم أن يتطرق الى حياتهم ولا يمكن كسل النجاح أن يميت نفوسهم اذا ما وصلت . انهم سيسعون أبدا وستفنى حياتهم فى هذا السعى وهم راضون متحمسون ، بل وهم محتقرون كل من يريد أن يريحهم أو يغريهم أن يستبدلوا بغايتهم غاية أدنى وصولا وأيسر سعيا .

وبينما كنت أحس الطمأنينة كلما فكرت فيهم كنت أحس القلق اذا ما فكرت فى نفسى : ما مقامى هنا بل ما مجيئى ومتى ذهابى . انى يا بنتى لا أعرف شيئا عن نفسى ولا أدرى من حياتى الا خيالات صور مشتتة غامضة . ولو تركت الى نفسى حينا لاتسع الوقت لأن أعرف من شأنها شيئا ، ولكنى موكل دائما بأمر ، مشغول بفكر . وأحسست يوما وأنا أجول حول المعبد برغبة فى أن أمعن فى هذه الصحراء . لقد كانت الصحراء أمامى كل يوم ، فما أحسست لجمالها اغراء ولا لسحرها فتنة . ولكنى فى ذلك اليوم أحسست اغراءها وفتنتها ، وأستطعت بعد مشقة أن أقاوم احساسى فلا أتيه فى مجاهيلها . فلما عدت الى صحبى اذا بهم قلقون مضطربون يتحدثون فى أمر جاءهم من المدينة ، فهذا حاكمها أرسل الى رئيسهم يريده أن يشخص اليه . وعاد منهم من المدينة من عاد ، فقد كانوا يخرجون اليها اما للدرس واما للمعاش ،

فقالوا ان أهل المدينة فى أشد حالات الاضطراب ، فقد قام عليها حاكم متكبر جبار يريد أن يخضع فيها كل شيء لأمره . فلما قاوموه تعسف وقتل فأذعنوا مرغمين ، وفى صدورهم براكين من الغيظ ، وفى نفوسهم فيض من ألم الذلة وذل المسكنة . وظل الحاكم عاما أو نحو ذلك لا يستطيع أحد الا موافقته على ما يفعل أو يقول . وترامت اليه أخبار المعبد وما ينعم به أهله من حرية وكرامة ، فعز عليه أن يكون حر أو كريم لا يخضعه لسلطانه ، فأرسل الى رئيس المعبد ليسير اليه . ولا يعرف السدنة الآن ماذا سيكون من أمرهم مع هذا الطاغية ، واضطربت نفوسهم أشد اضطراب . ولأول مرة أحسست انى غريب عنهم ، وانى لا أحس ما يحسون ، ولا أفكر فيما يفكرون ، ترى ماذا جعلهم يضطربون ؟ ولأول مرة أيضا أحسست الندم لأنى قاومت اغراء الصحراء وفتنتها . وتطلعت الى صاحبى فاذا هو الوحيد الذى لم يضطرب ، واذا هو يتحدث اليهم بما أصبحت أفهمه و ن غابت عنى بعض معانيه . انه أخذ يعيد الطمأنينة الى قلوبهم ، واذا هم يفيقون من حديثه أقوياء متحمسين . وتجاوبت الحماسة فى نفوسهم فقويت وازدادت قليلا قليلا حتى ملأت قلوبهم . انهم لن يفرطوا فى رئيسهم ، ولن يذهب الى الحاكم لأنه دعاه . ان حاكم المدينة لو طرق بابهم ما أجابوه . وما لهم وما يتناحرون من أجله هناك ! انهم زاهدون فى السلطان ، راغبون عن المال ، حسبهم من عيشهم هذه الحياة التى يحيونها مفعمة بلذة القرب من الله سبحانه وتعالى يتعبدون ويدرسون فيحسون حجب الكون تتكشف

لهم حجابا حجابا ، وفى كل كشـــــف لذة تطغى وسعادة تغمر .

ولـكن الحاكم لم يصبر على هـذا الثبوت له ، واذا جنـده يقتحمون المعبـد ويخرجون الرئيس بالقوة . ولا تسألى يا بنتى عن الهلع الذى اعترى تلك الجماعة المؤتلفة المتحابة . وكانت غضبتهم غضبة قوية دوت بها الصحراء كلها . انهم لن يرتضوا غير رئيسهم ، ولابد أن يرد اليهم . وسعى اليه من سعى فى عزلته وجفـاه من جفـاه . وهدأ الزمن من ثورة النفوس ، واذا الشدة كعادتها تـكشف عن حقيقة النفس ، وسرعان ما كشفت عن تلك النفوس التى سما بها الجو حولها ، فغارت فيه وهى ليست منه . فلمـا نضبت الـكأس ظهرت رواسبها التى كانت تعوم فيهـا . ان هؤلاء القلة الذين كانوا النواة الأولى لم يحسنوا اختيـــار اخوانهم ، فضموا اليهم بعض من فقه فـكرة المعبد وبعض من لم يفقهها أصلا . بل لقد ضموا بعض من بهره بناء المعبد ، ولـكنه عاش غريبا فيه يساير أهله وهو لا يحس انه منهم . كل ما فى الأمر انه وجد فى المعبـد أمنا ودعة لم يتوافر له خارجه ، وظن أن سيكون لهذا المعبـد شـأن دنيوى سريع ، فماذا عليه لو شارك فى هـذا الشأن منـذ الآن فيكسب بمر الزمن . لقد كانوا أعرف بطبيعة الحياة والانسان من هؤلاء المثاليين المؤمنـين الأولين .

وكان أمر الوافدين الجدد مضطربا بين هؤلاء وهؤلاء ، منهم من آمن مع الأولين فاقتنع بوجهة نظرهم ، ومنهم من عاد بعد قليـل فآمن بوجهـة نظر هؤلاء العمليين ، ونسوا ثورتهم العظيمة ، فالزمن كفيل بأن ينسى أعظم

الأشياء وأجلها شأنا فى الحياة . أما سدنة المعبد ، فلقد غفلوا أو تغافلوا عما بينهم من اختلاف ، وكانت أصوات العمليين تضيع فى أصوات المخلصين وعمقها وهم يرتلون من قلوبهم ، فظلت أنغامهم تخرج حارة قوية مع ان عددا ليس بالقليل منهم كانت تراتيله لا تجاوز الشفاه خجلا وخوفا .

ولكن المحنة أتاحت لهؤلاء العمليين أن يتكلموا وأن تعلوا أصواتهم الخائفة ، ومر الزمن فاذا أصواتهم تعلو فى الترتيل ، واذا أصواتهم تعكر صفو هذا اللحن الصافى الرقراق . وقال قائلهم : انه كان يجب على رئيسنا أن يجيب الحاكم فلا يعزله ولا يعذبه . وقال آخر : ان للحاكم سلطانا على كل شىء وسلطته مهما بالغ فيها يجب الا تعارض ، والا ضاعت هيبة السلطان فى كل زمان ومكان . ولكن ظل من المؤمنين الأولين من يقول انه ليس للحاكم ان يتدخل فى أمرنا ، اننا لا نتعرض له ولا لسلطانه ، فنحن قوم جعلنا بيننا وبين المال والسلطان آمادا واسعة . والمال الذى يأتينا من المدينة ان هو الا قرابين أهلها الينا لا يدفعه الحاكم من ماله ولا يتكلف فى سبيل ايصاله الينا شيئا . ولكن صوت هؤلاء المؤمنين وان يكن كله اخلاصا فقد كان فيه غير قليل من فتور خيبة الأمل والاشمئزاز ممن حولهم ، فلم يكونوا ينتظرون الا أن ترى الجماعة فى مثل هذا الموقف رأيا واحدا تراه أول الأمر ولا تحيد عنه الى النهاية .

وغضب سدنة المعبد المخلصين وتلاميذهم ما شاءوا ، ولكنهم عرفوا آخر الأمر ماحاولوا نسيانه ، وهو ان الحاكم الظالم لاتقاومه الا جماعة متماسكة كل التماسك .

اما هم فقد تفككوا ، وظهرت لهم العناصر الغريبة عنهم التى تعيش بينهم ، وعادوا سيرتهم الأولى ، وقد فترت حماستهم ونظر بعضهم الى بعض بعين الريبة والشك ، كل منهم يظن فى صاحبه ما لايظهر . لقد كانت التجربة قاسية . ثم أرسل الحاكم أوامره فحاولوا أول الأمر مقاومته ، ثم أذعنوا وولوا عليهم من ارتضاه الحاكم حتى لا تنفذ فى المعبد الا أوامره . لقد نقب هذا الرئيس الجديد أول ثغرة فى حصن المعبد المقدس ، فقد جعل للحاكم فيه أمرا لم ينته ، بل ازداد على مر الأيام .

ومنذ ذاك يا بنتى اتصل أمر المعبد بالحكم القائم اتصالا أفسد عليه كل أموره . فالذين كانوا من أبنائه يقضون النهار فى البحث والتسبيح لله ، والليل فى التهجد والتفكير والتأمل ، أصبحوا يقضون اليوم فى المدينة باحثين عن الأسباب التى توصلهم الى رضا السلطان وعطفه ، وليلهم فى التفكير فى وسائل هذا التقرب وكيفيته . فاذا صحا خيالهم وألم بهم الملمة ما ، لم يفكروا فى جنات عدن ، وانما تخيلوا ما يمكن أن يصلوا اليه من سلطان ، وما يمكن أن ينعموا به من مال . وأصبحت صلاة المؤمنين المخلصين منهم تجمد على جدران المعبد الخرساء الباردة قبل أن تنزلق فى طريقها الى السماء . وبذلك أصبحت الحياة فى المعبد جحيما لا يطاق . وأمر الرئيس الجديد ، ونهى وأطاعه بعضهم ، وتحاشاه الآخرون ، فقرب وأبعد ، وأفسد ما شاء له الافساد .

ويشاء الله ، جلت حكمته ان تعارض ، أن يعود فى تلك الآونة شبان المعبد المسافرون فى صحارى

العالم ، وفى قلوبهم حماسة الشباب المؤمن ، وفى عقولهم علم وأمل واسع عريض ، فاذا المعبد حوله أسوار لم تكن أيام كانوا فيه . فنفرت نفوسهم من تلك القضبان الحديدية ، وما ترمز اليه من معنى السيطرة والسلطان ، بل من معنى القيد والذل . ولكنهم جاوزوا الأسوار ، واذا وجوه اخوانهم وكبارهم توحى بنفرة أشد وخوف أقوى . انهم لم يرحب بهم أحد ولم يهش لمقدمهم انسان ، وتقدموا للعمل فلم يشجعهم أحد ، بل أحسوا رغبة خفية فى التخلص منهم . ولما عرفوا حقيقة الأمر وجموا حينا ، وأفاقوا من وجومهم فريقين : فريق زار معابد الصحراء زيارة عابرة لم تذك فى نفسه نارا ، بل أخمدت ما أضاء له أساتذته الأولون فى معبد الصحراء هذا ، لذلك آثر أن ينحو نحو من رآه فى المعبد يقوم بالأمر ، وقد أسبغ عليه سلوكه هذا مسحة فلسفية استمد منها بعض ما يدافع به عن نفسه أمام اخوانه . واستمر يصعد فى سلم المادة وهو آمن مطمئن يفسر انتقاد اخوانه حسدا ، ويرى تأنيب ضميره رجعية ، واذا هو وحش كتلك الوحوش التى سمعت أصواتها ، وارتفع صوته يقوى أصواتها فازدادت غلاظة ونكرا . وأما الفريق الآخر فقد آثر الانزواء فى المعبد بعيدا يخفت من صلاته ويدارى من تسبيحه وقد انصرف عن كل أمر فى المعبد ، لايكاد يدرى مما يدور فيه شيئا ، وهو غارق فى الدعاء الله أن تنجلى المحنة وأن تعود للمعبد حياته الأولى . ولما طالت بهذا الفريق الأعوام ثبت من ثبت ، وتغير منه من تغير ، بل فر منه من المعبد من فر .

وهكذا فقد المعبد الروح الذى يحدب عليه ، وأصبحت عقول سدنته وقلوبهم خارجة عنه وان ظلت أجسامهم فيه . ولم أطق العيش معهم ، فخرجت الى هذه الصحراء أجوبها من جديد ، وعدت أليه بعد أعوام لما ترامى الى سمعى من أن رئيسهم القديم عاد اليهم . ولكم تألمت عندما وقع بصرى على المعبد بعد أن تركته طوال هذه الأعوام !.. ان القبة الزرقاء أصبحت رمادية مما تراكم عليها من تراب . ان الجدران اللامعة الملساء قد تآكلت ، وتحفرت ، كأنما نخر فيها السوس . ان الأرض البيضاء الناصعة قد اسودت من اقدام الوافدين الذين هان عليهم أمر معبد ، هان على سدنته من قبل . ان الهواء الطلق الجميل الذى كان يمر بالمعبد فى جلال الحرية وشمولها أصبح يدخله من خلل قضبان كأنما هى أنابيب لا تطلقه الا بمقدار . ورحت الى صديقى أروى ما فعلت به المحنة فاذا هى قد تركت فيه آثارها . لقد بلا فيها ما لايمكن لانسان أن يبلوه ليظل ايمانه كما هو واخلاصه كما كان . نعم ان اخلاصه لم يطفأ . انه ما كاد يطأ بأقدامه أرض المعبد ، ويسمع أصوات بعض المخلصين من صحبه حتى نسى أو تناسى ما كان من أمر السدنة طوال هذه الأعوام . وبدأت حرارته تثير المكان ، وبدأ السدنة يلتفون من حوله ، وبدأ ترتيلهم خافتا ، ولكنه كان صافيا ، واذا الأطيار تعود فرادى لتحلق حول القبة الزرقاء تتلقى الأنغام فترددها خجلة من ترددها الرفيع ، ثم متحمسة شيئا فشيئا حتى يفنى صوتها فى عمق أصوات السدنة المخلصين . ودخلت المعبد من القبة الزرقاء تريد أن تقبع فيه من جديد ،

ولكن صدها ما رأت . ان العناكب متراكمة على جدرانه ، وان وجوه سدنته ساهمة ، وعيونهم زائغة ، أكثرها عالق بالأرض يحسب ويزن ، ولا يتطلع الى السماء ليحلم مطمئنا .

وسار الزمن بالمعبد فى حالته الجديدة خطوات ، تحسبونها أشهرا أو سنوات ، واذا الرئيس نفسه قد يئس من أمر المعبد . لقد كان الفساد فيه أشمل من أن يوحى بأمل فى اصلاح . ان جهاد الاصلاح أعسر من جهاد الانشاء ، ومقاومة أهل المعبد أنفسهم أعسر وأشق من مقاومة السلطان . ان هؤلاء الغرباء الذين ظلوا فى المعبد واصبح الأمر لهم الى حد بعيد كان من الصعب اغفالهم ، ومن الأصعب التعاون معهم . ولم يكن الرئيس قوى الثقة بأبنائه الشباب ، فقد اظلم نظرته اليهم ما بلاه فى كبارهم ، فظلمهم وظلم نفسه ، بل ظلم المعبد فيهم . ولم تكن هذه القلة المخلصة الصافية من شباب أبنائه بكافية عددا لتعين على اصلاح جبار كالذى تتطلبه الحال . وهى قد الفت العزلة والحذر من المشاركة فى أمر ، فلما جاء الرئيس كانت هى أيضا ضعيفة الأمل فى الاصلاح أو عودة الحال . وحاول الرئيس ما حاول ثم مل وسئم ، وظلت هذه القلة عاكفة على نفسها لم تسأم ولم تيأس كل اليأس . واتصل اليائس بالمتفائلين منهم ، فغلب يأسهم الحار تفاؤلهم الخجل الفاتر . ولم تعد للرئيس حياة فى مثل هذا الجو ، ففر يائسا الى المدينة ، يشق لحياته طريقا آخر ، ويرسم لنفسه غايات جديدة ، لست أدرى من أمرها شيئا : أتتصل آخر الأمر بالمعبد ، أم هى قد

قطعت كل ما بينهما من أسباب .

ان أعمار الرجال يا بنتى لقصيرة ، وان قصرها وحده لخليق أن يشع فى النفس معانى وتقديرات تقلب وجهة النظر الى الحياة كلها . فاذا ما تقدمت هذه الأعمار وأحس أصحابها لأول مرة احساسا قويا انها ستنتهى بعد حين ، وان هذا الحين ليس طويلا كما كانوا يحسونه فى الشباب ، أشع هذا الاحساس فى نفوسهم من الأحاسيس والمشاعر ما هو كفيل بأن يغير مجرى الحياة . ولكن ما لنا وللرئيس !.. لقد هجر المعبد وهجره معه الأمل فى عودة الحال سيرتها الأولى .

وهكذا يا بنتى ظلت أمور المعبد تسير من فساد الى فساد ، ومن يأس الى يأس ، حتى نصبوا عليهم أخيرا شرهم خلقا وأبلدهم حسا ، وأضيقهم أفقا . رجلا لايدرى من أمور الدنيا الا ما يفيده وينفعه نفعا ماديا . انه كبعض حيوان الصحراء الذى لا يفيق من نومه الا على خطر يهدد حياته ، واذا هذه الغفلة الطويلة والنوم العميق يستحيلان الى يقظة وذكاء لا قبل لهذا الحيوان بهما . فاذا ما زال الخطر عاد يغط فى نومه وينعم بغبائه من جديد . ولا تسألى عما أفسد فى نفوس أهل المعبد وأموره ، فكما ان الروح السامى يرفع من حوله الى عليين كذلك ينزل الروح الشرير بمن حوله ضعاف النفوس الى أسفل سافلين . ووصلت الحال أخيرا الى ما قد سمعت من صوت ، وما رأيت من مناظر .

قلت : سيدى ولماذا ولوا عليهم شرهم ؟ قال : انه أمر السلطان . لقد كان أهل المدينة يرسلون

خيراتهم الى أهل هـــذا المعبد وهم يرونها قربانا لأهله وتقربا الى الله وســـدنته ، وكثيرا ما أسفوا على انها ليست أكثر مما يرسلون بالفعـــل . ولـــكنهم اليوم ، بفضل سوء الحال عندهم وفى المعبد نفسه ، أصبحوا يحسون انهم يدفعون الى أهله ما لايستحقون ويمنون عليهم بما ليس لهم فيه حق . وسدنة المعبد لا يهمهم من هـــذا شيء . انهم ساعون دائما لملء بطونهم حتى يغطوا فى نومهم ، وتضخيم أصـــواتهم اذا ما أفاقوا . وهم يرون فى ضخامتها جلالا ، وفى نكرها اشـــعارا بعظمتهم ، وهـــذه أصـــواتهم تعلو من جـــديد ، انصتى اليها .

قلت : سيـــدى ، ولـــكن أليس عنـــدك أنت أمل فى عودة الحال ؟ قال : انى لا أعرف الا ماضيا وحاضرا ، أما المستقبل فلا يـــكشف لى عنه الا سدنة مخلصون ، وقد مات هؤلاء من دنيـــاى . قلت : ولـــكن تلك القلة من شـــبابه ألا تصحو يوما ؟ قال : من يدرى ! .. نعم من يدرى ! ..

ثم عاد يداعب رماله بعوده من جديد . وخفت أن يصمت فقلت : ولـــكن أليس هناك ما يمكن أن يعمل ؟ ولـــكنه لم يجب . ولو قد أجاب لضـــاع صـــوته فى تلك الصيحة المنـــكرة ألتى ســـدت الآفاق من ســـدنة المعبـــد ، تثير فى النفس خوفا واشمئزازا بعيدين كل البعـــد عن الاجلال أو الاعظـــام . قلت : ســـيدى ! ولـــكن الشيخ ظل كما هو لا يتحرك . وفجأة هبت الريح قوية أول الأمر ، ثم عاتية قاسية حتى رفعت كثيرا من رمال الصحراء الى آفاق السماء ، فأقفلت عينى حتى لا تعميها ذرات التراب ، فاذا الخوف يبلغ

منى مبلغا عظيما ، فهذه أصوات منكرة وسط الظلام ، وتلك رياح عاتية تكاد تقتلعنى من الأرض. وصحت فى خوفى : سيدى أين أنت ؟ .. ولكننى لم أسمع لنفسى صوتا . وازدادت العاصفة قوة ، فاذا بى أندفع الى حيث لا أدرى ، أعدو كأنما الرياح هى التى تحملنى .

وفجأة وجدت نفسى على أبواب المدينة وقد كان النهار الطويل أن ينتهى وعدت الى بيتى متعبة ، ومنظر المعبد وشيخه وحديثهما ، بل الصوت المنكر ، ملء نفسى وخيالى . وما كاد الصباح يلوح هادىء النسيم ، كأنما الطبيعة تستريح من جهاد عاصفة أمس ، حتى أسرعت الى الصحراء أبحث عن المعبد وشيخه فلم أجد لهما أثرا . وطال بحثى وتجوالى حتى كلت قدماى ، وعاودت البحث مساء وصباحا أياما ، وأياما بلغت أشهرا ، وأعواما ، حتى يئست من أمرهما . ترى ابتلعتهما عاصفة الصحراء ، أم حملتهما الى صحراء أخرى من صحارى الأرض . ولما بلغت حيرتى أشدها شككت فى أمرنفسى ، فسألتها : أرأتهما فعلا ، واستمعت الى الشيخ حقا ؟ .. قالت : أما ذاك فليس فى أمره شك . قلت : ولكن أين ذهبا . قالت : أما المعبد فلا يمكن أن يكون قد رفع على متن الريح . وأما الشيخ فقد كان أكثر تعلقا بالأرض ولصوقا بها من أحجار المعبد على ضخامتها . قلت : اذن أين هما ؟ .. قالت : فى الصحراء . قلت : وما لى لا أراهما ؟ .. قالت : انها صحراء صامتة خرساء قاحلة جرداء ، ولكن عليها أزخر حياة وملؤها أشهى حديث ،

ولا يحس حياتها ولا يسمع حديثها الا من أحبها ، ونسى نفسه فيها . قلت : وهل أحب الصحراء مثلى أحد ؟ .. قالت : أنسيت العاصفة وما أثارته فيك من خوف واضطراب ! .. مما فررت ؟ .. وعلام حرصت ؟ أعلى الصحراء ؟ .. قلت : لقد زالت العاصفة . قالت : ولكن آثارها لا تزال . وهل يزول في الوجود شيء .

الحقيقة

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟! »

« قرآن كريم »

تململت فى فراشها وظلت تنظر ذات اليمين وذات الشمال ثم تغمض عينيها وتفتحهما ثانية وتفكر أين هى هيه .. أين هى ؟ ... آه .. هى فى المستشفى ، وقد جاءت اليها منذ أيام ؟ منذ أسابيع ؟ منذ شهور؟ لاتدرى ولكن لم جاءت ؟ يقولون انها مصابة بمرض عقلى أنهك أعصابها . وحياتها فى خطر من جرائه . هاها ! مضحك أهذا كل مافى الأمر ؟ .. ولكن أين أختها ؟ لقد كانت جالسة هنا منذ حين ولقد أوصتها أن تكتب كل ما تمليه عليها ، ولكن الظاهر انه لم يكن هناك ما يملى ، فقامت وضحكت ضحكة عصبية عالية . هاها الساذجة ، الا تدرى ان رحلاتى فى عالم الأرواح اصبح يحوطها جو غريب ، جو يقبض الأنفاس فلا أستطيع التحرك ولا التكلم ولا .. ولا التفكير . . ترى هل اوفق ؟ اعينينى أنتها القوى الخفية ، أعينينى : ارحمينى ، فما فى مطلبى اجحاف ولا ظالم ولا طمع . كل ما اريده هوان اعرف الحقيقة .

دخلت الاخت وعلامات السهر بادية عليها : اصفرار فى الوجه ، وورم فى العينين وخمول ووهن فى الأعصاب .

« اين كنت ؟ آه من لى بهذا الاطمئنان ، بل هـذا البرود الذى يسود حياتك ، انت لا تعرفين عما اريد ان اعرف شيئا ، ومع هذا انت لا تأبهين بشىء . ايمان مطلق وهدوء تام. ثم هؤلاء الأولاد أولادك ماذا علمتهم عن الحياة ، عن الموت ، عن الله ، عن الحساب : عن الروح .. لاشىء ، لا شىء ، لانك لا تعلمين شيئا ولاتريدين أن تفكرى لتصلى الى شىء » .

« كفاك اختاه ما انت فيه من وهن الاعصاب. اريحى رأسك قليلا . لقد شغلت هـذه المسائل رءوس آلاف الناس قبلك ، وستشغل رءوس آلاف الناس بعدك. ولن يوفق اليها أحد لأن الله أراد ذلك ، وإرادة الله ليس لها مرد » فصاحت فيها .

« لم ينه الله عن البحث والتفكير، ولم يأمرنى الأعرف شيئا عن هذه الأشياء ، اقتربى هنا ، ماذا كتبت ؟ لا لا أريد شيئا من هذا : أكتبى ما أمليه عليك كله أكتبيه رسالة منى الى أهل هذا العالم كلهم ، سأعرف الحقيقة اليوم ستقودنى اليها قوة خفية لاأعرف عنها شيئا الآن ولكن سأعرفها بعد حين . اياك أن تفوتك كلمة واحدة أو اشارة واحدة . افهمت ؟ » .

« نعم اختاه ، سأكتب كل شىء » .

لقد كانت دائمة الصمت كثيرة التفكير . اتسعت دائرة تفكيرها على مدى الأيام حتى شملت أعوص ما فكر فيه الانسان واغمضه . ولم تصل الى العشرين من عمرها الا وشغل تفكيرها هذا الكون بما فيه من قوى

خفية . قوى تتلاعب بالانسان كيفما شاءت وهو لايدرى من أمرها شيئا . يحاول ويحاول ولكن سرعان مايعرف ضآلة المرحلة التى اجتازها امام ذلك الخضم المظلم من الأسرار والخفايا .

اشفقت عليها امها مما هى فيه ، وحاولت أن تدخل الى تلك النفس المفكرة الصامتة الحزينة بعض ما يسليها او يريح فكرها ، ولكن نصيبها كان الفشل المؤلم .

وهاهى ذى الايام تجرى سريعة والأم يزداد اشفاقها، وخوفها والفتاة يزداد نحولها وضعفها، ويزداد احتقارها لكل شىء فى العالم الا ما تفكر فيه . كل متعة تنظر اليها كما ينظر الشاب الى الاعيب صباه ، واذا ما رغبها احد فى أية لذة او سلوى هزت كتفيها وقالت : «لست أدرى ما هذه السذاجة ؟ لقد ألقى اليكم مدبر هذا الكون بهذه الألاعيب لتلهوا بها عن اللذة الكبرى : لذة العلم : لذة معرفة الحياة وما بعدها » .

ساءت حالها على مر الايام فارغمت على ملازمة الفراش فى مستشفى الأمراض العقلية ، ولكن ذلك لم يمنعها من مواصلة التفكير . وكثيرا ما قرأت فى كتب الدين وكثيرا ما قرأت القرآن الكريم ، تقف عند بعض آياته فتسترسل فى التفكير العميق ، وكثيرا ما وقفت عند الآية (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وحملت الآية أكثر ما يمكن من معانى الاستهزاء والسخرية «وهؤلاء الناس لايعلمون شيئا ، ولكنهم لايجتهدون فى أن يعلموا شيئا . قنعوا بما لهم وفسروا العلم بتلك المحاولات التافهة التى يقضون العمر فى تحصيلها وكأنها

هى العلم . لقد انشغلوا عن العلم الحق ، عن أهم ما يتشوقون اليه . لقد خدعوا انفسهم والبسوها ثوبا من الايمان والاطمئنان وهم يعلمون فى قرارة نفوسهم انه ليس الا مبردا للنار المتقدة ، وملطفا لهـــذا التطلع الغريزى » .

جلست الأخت قرب سرير أختها وأخـذت تلاحظها وتدون بعض هذه الملاحظات وانتظرت والقلم فى يدها ان تكتب ما تمليه عليها كما وعدت ، ولكن النعـــاس غلبها فنامت . لم يطل نومها حتى قامت فزعة مذعورة على صوت اختها المحشرج وهى تصيح صـيحة منكرة قائلة : « لن تفتر عزيمتى مهما سرت ، فسر بى أيها النور ، سأتبعك ، سأتبعك فوق الجبال ، فى اعمـاق الأنهار ، فى السماء ، فى جوف الأرض تعلو وتنخفض ولكنى اتبعك . لن ارجع كما رجعت قبل اليوم ، ولن انظر الى نفسى فتشغلنى عنك ، سر أنا وراءك » .

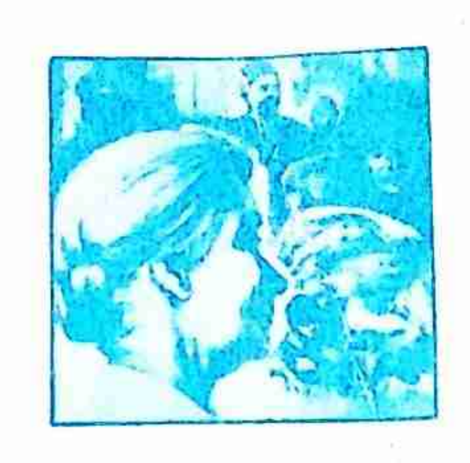
كتبت الأخت واستمرت هى تقـول « بدأت أفهم ، نعم عرفت ، ولـكنى لا أقوى على التعبير عما أعرف ، لماذا ؟.. كلا لن أفكر فى هذا ، سر ، سر ، أيها النور انى وراءك ، آه ألهذا اذن نموت ، ولهذا اذن نحيا ، نعم ولهذا يجب الا نعرف . فهمت . عرفت ، ولكن يجب أن أعرف أشياء أخرى ، يجب أن أعرف يجب أن أعرف السر الأعظم سر ، سر ، انى وراءك » . « نعم لقد عرفت كل هذا أيضا ، ولكن كيف أعبر عنه فلأحاول فلأحاول ، لا ، لا أقوى سأعبر عندما أعود الى ماذا أسميه ؟ الى هـــذا الملعب ، الى روضة الأطفـــال ، الى ما يسمونه العالم . ها ! ها !

« لقد أعياني السير ، أما آن لى أن أعرف الله ، أن اعرف القوى المهيمنة على كل شيء ، على كل ملاعب الاطفال هذه ، ما أكثر عددها وما اشد اعتداد كل منها بنفسها ! كأن ليس هناك سواها . لقد عييت ، ولكن كلا كلا ، سأسير ، سرانى وراءك ....

« رهبة شلت حواسي ، لقد امتزج هذا النور الذى اتبعه بالظلام حوله ، ولقد كانا قبل يزيد كل منهما فى قوة الآخر .. جو غريب لا هو ظلام ، ولا هو نور شيء ثقيل ينزل على رئتى ، الكلام عسير، والتنفس شاق ... ستار هائل عظيم أمسكت بطرفه يد خفية . سيزاح هذا الستار دون شك ووراءه الحقيقة الكبرى. كل ما فى ينبض بذلك ، ازداد الثقل على رئتى ... لا استطيع التكلم ، الستار يزاح ، التنفس عسير عسير ، لقد قضى كل شيء ، سأعرف سأعرف ، سينزل الستار، هو ينزل بالفعل قليلا .. قليلا ، سأعرف سأعرف ، قليلا ، بطيئا ، لقد عر .. فت .. آه .

ودوت صرختها قوة كالرعد مرعبة محشرجة ، ثم ساد الصمت ، صمت عميق ، عميق رهيب مخيف ، وقفت الأخت عن الكتابة فزعة مذعورة ولكنها لم تقو على تحريك رأسها ناحية أختها المريضة . حاولت أن تنادى فلم تفلح ، وأخيرا أدارت رأسها فصرخت هى الأخرى صرخة مروعة ، أمامها عينان جاحظتان خيل اليها انهما فصلتا من الرأس ، وانهما كل شيء على الفراش . وحولهما عروق نافرة زرقاء متوترة مشدودة. اغمضت عينيها وفتحتهما مرة ومرتين ، وأخيرا استطاعت بعد لاى أن تمد يدها لتلمس الجسد امامها ، فردت يدها قشعريرة شديدة مكهربة ، ودوى صوت هائل رن فى

اذنيها . تبينته فاذا هو ضحك استهزاء، ضحك غريب الصوت متواصل ، وكأنه آت من عالم آخر ، ليس لها به عهد ، ضحك ، بل اغراق فى الضحك ، ثم ماذا ؟ صوت كلمات ، صوت هادىء رزين ولكنه مسموع برغم هذه الضحكات الهازئة العالية المتواصلة . ماذا يقول ؟ ماذا ؟.(هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون؟).



هـــذا الكتاب

مؤلفة هذا الكتاب يعرفها القراء فى الوطن العربى ، ويعرفونها خارج الوطن العربى أكثر ٠٠ وهى ليست فى حـــــاجة الى تعريف أو تقديم ، لأنهـا قدمت نفسها بقلمها منذ وقت طويل ٠

ان الدكتورة سهير القلماوى نموذج ومثال للمرأة العربية الرائدة وللأستاذة المثالية ، وهى نموذج ومثال للكاتبة الدقيقة الرقيقة ٠

والقلم بين أنامل الدكتورة سهير القلماوى فكرة ونغم ، وهى توقع أفكارها على قيثارة مبدعة ، وتعرف أن الكلمة هى كل شىء للأديب ، لانها عدته ، ولانها مادته ٠

الكلمة ليست لفظا يلقى بغير انتقاء ، ولكنها اختيار وتدقيق ، وهى أداة التفكير والتعبير معا ٠

وفى هذا الكتاب أفكار كتبتها سهير القلماوى بكل نفسها ، بكـل احساساتها وقدرتها على التعبير الفنى الجميل ٠

اننا لا نكتب نقدا لهذا الكتاب الذى يعتبر من أهم الآثار الأدبيـة فى حياتنا المعاصرة ٠٠ فقد كتب هذا النقد عميد الادب العربى الدكتـــور طه حسين حين قدم لكتاب تلميذته ٠ وقد نشر هذا النقد ٠

هذا كتاب جميل لابد أن يقرأ فى وقت يحتاج القارىء العربى الى شىء جميل مفيد يقرأه وينفعه ٠